مكتبة الأسرة
في عام القراءة للجميع ٢٠٠٣

محمد المخزنجي

أوتار الماء

الأعمال الإبداعية

أوتار الماء

أوتار الماء

محمد المخزنجي

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)
إشراف: د. سهير المصادفة

أوتار الماء
محمد المخزنجى

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سميـرسرحـان

طبعة خاصة من دار ميريت لمكتبة الأسرة

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشـــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سميرسرحان

رنيـــن

بعض مغنيات الأوبرا من "السوبرانو" ذوات الأصوات بالغة النقاء والقوة يستطعن بأصواتهن تهشيم كئوس البللور بفعل "الرنين" Resonance وهو محاولة المادة للاهتزاز توافقيا مع موجة صوتية عالية الطاقة تجعل الزجاج يرج نفسه بعنف حتى يتحول إلى نثار كيما ينجز هذا التوافق وكأنه تحول إلى أوتار عديدة يتجاوب كل منها مع موجة الصوت الحافز.

(ترجمة بتصرف عن "كتاب العلم" لروبين كيرود)

تلك الحياة الفاتنة

لك أنت أيتها المسالمة أحكى هذه المرّة . فالحكاية المذهلة تجلّت لى بين جوانح تلك اللحظات التى أوشكت أن تأخذك منى، بينما كنت بادئاً بالكاد اكتشف أننى اخترتك بعناية ، وأنك لم تكونى إلا قدراً محسوباً بدقة ليناسبنى.

فلحظة نزلت من السرير، وأنت فى ذلك الروب الورقى المعقم، وبينما كنت أساعدك على الهبوط ثم الصعود إلى "الترولى" الذى سيحملك إلى غرفة العمليات، أحسست أنك هى المخلوقة التى تخصنى تحديداً. وبدت التفاتة وجهك الشاحب نحوى اشراقة قدر لا نهائى التوحد.

كنت تودعيننى وتتمنين أن نلتقى من جديد، وأحسست بحنين ورهبة لم أحس بهما عمرى. وعندما مضوا بك نحو غرفة العمليات ولم يسمحوا لى بعبور ذلك الخط الأحمر دهمتنى وحشة الكون.

كنت تمضين مستسلمة ونزيفك الداخلى يقف بك على حافة الموت . كنت تمضين إلى مخاطرة كبرى، وبدا لى استسلامك الطيع كأنك تتكمشين تحت جناحى. ولم يكن كل ما يحدث لك بعيداً عنى، كنت شريكا فى صنع مأساة جسدك تلك، فأنا والد ذلك

الجنين الذى كبر خارج الرحم حتى مزق تلك القناة الرقيقة هناك وفجرّ النزيف داخلك.

كم كنت تتألمين كابحة رغبتك فى الصراخ حتى لا تسببين لى إزعاجاً. الآن بينما كانوا يمضون بك فى الردهة التى تفضى إلى غرفة العملية الكبرى كنت استعيد ذلك، وكان تناوب سطوع المصابيح وتوالى الظلال فى تلك الردهة يوحى بعبور برزخ بين الحياة والموت. "ارجعى لى" ، همست داعيا الله أن تعودى بعد أن اكتمل غيابك هناك وراء الباب الأخير وصرت وحدى فى تلك البقعة الموحشة من المستشفى، أتماسك مانعاً انهيارى فى البكاء.

بعد ثلاث ساعات طويلة، مريرة، عدت لى.. عدت نائمة فى غيمة المخدر، شاحبة وصغيرة كأنك طفلة، وكان صرير عجلات الترولى فى ردهات المستشفى يشبه صرير عجلات عربات الأطفال. كان الرجاء قريباً والخوف مثله. ثم على سرير المستشفى بدأ استيقاظك . فتنفست عميقاً لأول مرّة بعد دهر عصيب.

كان هذيانك فى بدء صحوك طيباً مثلك. وتيقنت أن لى فى داخلك الكثير.. قبلتك وعابثت هذيانك ووجدتك كما فى تمام صحوك نقية من كل ابتذال، وكان هذا يروق لى، أن أكون أنا الحوشى وأنت صفاء الندى. مضيت أنا بعد اكتمال صحوك إلى

البيت، بيتنا، لأحضر لك ما يلزم الإقامة فى المستشفى لعدة أيام وأحضر ما يلزم لى حتى أبيت معك.

وبالتجسد الإحساس بغيابك فى فراغ البيت. بالتلك الظلال المفعمة بالشجون التى يصنعها شيش النوافذ التى تركتها مغلقة. يا لجفاف الأكواب والحوض وصمت البيت دونك .؟ أما أشياؤك فإننى لم أكن أتخيل أن تكون الأشياء قادرة على الإيحاء إلى هذا الحد العاصر للقلب.

ترتيب الثياب والمناشف وتلك الأشياء الصغيرة تحولت إلى كائنات تُسرُّدون كلام، وترسل موجاً من المشاعر وقف بى كثيراً على حد البكاء. فماذا لو أنك ذهبت وتركت لى كل هذه الأشياء المهجورة تسألنى عنك. كل تلك الأشياء التى تشع نظافة والتى نامت مطوية ومرتبة برهافة ودقة تحت أناملك. الموت شيء مرعب ليس فى حد ذاته، ولكن بما يتركه للأحياء من بقايا حياة الراحلين.

هكذا خرجت من البيت لألحق بك فى المستشفى. فى يدى الحقيبة مملوءة بالأشياء، وفى كيانى فيض من التأثر والحنين. ولعل ذلك كان تمهيداً لاستقبال الرؤية المدهشة، تلك الرؤية، ولا أقول الرؤيا.

* * *

أنت تحبين ذلك الشارع من شوارع "المعادى" المترفة بالأشجار والنباتات والزهور . الشارع الذى يبدو كأنه نفق من ظلال الأشجار المصطفة على الجانبين بينما مظلاتها الخضراء مشتبكة فى الأعالى. فتنتك الظلال والخضرة خاصة نباتات الأسيجة التى تفيض على الرصيف حتى تلتقى ببهجة العشب والمنتور الأصفر المتألق على الأرض . هكذا يلتقى منتور الأرض ببياض الياسمين وبنفسيجية بهجة الصباح على السياج، وحمرة البيجونيا فى الأركان.

كانت السيارة من عربات الميكروباص، تلك التى تحمل خمسة عشر راكبا فى وقت واحد. وكنت أنا هناك فى المقعد الخلفى، لكننى كنت أستطيع رؤية الشارع فى امتداده من بين الرؤوس أمامى، وهناك كانت القطة التى راحت تتقافز لاعبة بعرض الشارع إذا كانت لابد تخايلها فراشة من الفراشات المتكاثرة حول الزهور فى ذلك الوقت. كانت القطة فى فوهة الشارع المفضية إلى ميدان النهضة الصغير الذى تتوسطه جزيرة النخيل الملكى قرب السفارة المكسيكية. ذلك المبنى البديع بلونه الكريمى المتورد وشبابيكه الحمراء البرتقالية والحديقة الرائعة ذات السور الخفيض المثقل بالخضرة والزهور.

فى هذا المكان إذن وبينما القطة لاهية فى لعبها كانت السيارة تنعطف داخلة الميدان الدائرى بسرعة لأنه خال كالمعتاد. كانت قرب الرصيف المواجه لرصيف السفارة المكسيكية ومندفعة بعرض الشارع الذى تقطعه السيارة. وفى لمح البصر حدث كل شىء.

فوجئت القطة بقدوم السيارة المسرعة، وبدلا من أن تستدير راجعة اندفعت راكضة إلى الأمام ولم يستطع السائق تفاديها أو الإبطاء، فدهسها، وإذ بالقطة تصير اثنتين .

نعم اثنتان.. واحدة رأيتها من الزجاج الجانبى تفر ناجية مروعة، ثم تقفز على سور حديقة السفارة لتختفى بين أشجارها. والثانية كانت هناك، مكومة على الأسفلت بعد أن دهستها وعبرتها السيارة ورأيتها عند التفاتى الخاطف عبر الزجاج الخلفى.

أعرف يا سكنى أن أحداً لن يصدقنى مثلك. وأعرف أن تصديقك لى ليس مماشاة مجنون تحبينه ، لكنه تصديق شريكك فى الإيمان بأن الكون من حولنا ملئ بالمدهشات التى لم نعرف قوانينها فنسميها "معجزات" أو "خوارق". وأعرف أنك طيبة إلى درجة الفرح بكل معجزة شجية. لهذا لن أخون طيبتك تلك وسأبسط بين يديك بأمانة تفسيرى لتلك الرؤية التى تكشفت لى وأنا فى الطريق إليك بعد نجاتك من الموت مرتين، مرة من النزيف

الداخلى.. ومرة من تلك الجراحة الكبرى التى استأصلوا فيها جزءاً من داخلك.

بقوانين عالمنا المحسوس، يا سكنى، اندفعت القطة فدهستها عجلات السيارة. لكنها بحسابات الروح وبما كانت فيه من فرح اللعب ، ثم فى مواجهة المباغتة الخئون للخطر الداهم، قفزت قفزة الحياة فى وجه الموت.. فنجت. ولو شئت يا طيبتى تفسيراً آخر، لحدثتك فى ضوء نسبية الزمان ودفء الراصد، فبينما كنت أنا الدافئ بكل ما يعتلج داخلى من تحنان عليك، وحيث أن الزمن يتلكأ أمام راصدٍ دافئ، فقد لمحت اللحظتين معاً.

نعم يا سكنى، لمحت اللحظتين، بل لمحت لحظة النجاة قبل الموت.. وهذا جائز عندما تبرق أذهاننا بسرعة تفوق سرعة الضوء فنرى العلل قبل معلولاتها.. نرى النتائج قبل الأسباب.

يا سكنى، كثير من هؤلاء الناس الذين نراهم يمضون من حولنا فى نهر الحياة، دهستهم الحياة من قبل، مرة أو مرات. لكنهم انتفضوا ليواصلوا المسير. فالحياة طيبة برغم كل شىء، وبرغم أنها فى مثل تلك الحالات تغدو مثقلة بذكرى اللحظات الأليمة.. تغدو مفعمة بالشجن.. والشجن حزن جليل. والجلال أعلى مراتب الفتنة.. يا سكنى.

هرم داكن توشيه الثلوج

رحتَ تدوُر فى حلقة ميدان "بوداستوبا" وسط الدائرين وأنت تبحث عن شىء آخر غير الذى كانوا يبحثون عنه. فى قلب الميدان يستقر المعبد الدائرى ذو القبة الهائلة البيضاء التى تعتليها مسلة ضخمة رسمت عل وجوهها الأربعة "عيون بوذا" الكبيرة هادئة وعميقة التحديق كأنها تسبر أغوار الطائفين فى الدائرة. يمضون فى خلعهم الحمراء الزعفرانية بينما تزاحم رؤوسهم الحليقة يتقدم كالموج من جدران المعبد الخارجية الخفيضة التى ترتكز عليها القبة وتتخللها نوافذ صغيرة ثبتت بها أسطوانات عتيقة تدور حول قضبان رأسية توصد النوافذ. تمر أصابعهم وهم يطوفون حول المعبد بالاسطوانات ذات النقوش التيبيتية الداكنة العتيقة فتدور بما فى داخلها من لفائف التراتيل والأدعية وما يتمتمون به من اعتذارات وتمنيات لعل هذا كله يدور بالغفران والتحقق فى اتجاه عقارب الساعة وفى اتجاه سريان الأعمار واتجاه تحدد المصائر. لكنك غيرهم تبتعد دوما عن المركز نحو الأطراف حيث تتعاقب أبواب الحوانيت التى تبيع البسط التيبتية الثقيلة زاهية الألوان والأوانى المسكونة بالأصوات والأجراس المنقوشة بالتسابيح والبخور وتماثيل بوذا المتأمل. تخرج من

حانوت لتدخل آخر وسؤالك يتكرر: "هل توجد بطاقات اتصال دولى؟" وتعثر على ضالتك فى حانوت لبيع الكتب السياحية فيدهش البائع البوذى بأنك تأخذ كل ما لديه من بطاقات: خمسين بطاقة ثمنها مائتين وخمسين دولاراً كاملة. "هل ستتكلم بكل ذلك اليوم"؟ يسألك البائع فى استغراب تتسع له عيونه المائلة لكنك تسرع بالبطاقات دون أن تجيب وتتجه إلى الفندق الذى تقيم فيه والمطل على الميدان ذاته والمعبد وعيون بوذا وأمواج الطائفين ذوى الخلع الزعفرانية والرؤوس الحليقة. لكنك تصير أبعد ما تكون عنهم وأنت تراهم عبر زجاج نافذة الحجرة التى توصدها وتترك على مقبض بابها من الخارج بطاقة التنبيه "أرجو عدم الإزعاج" لتسافر عبر الهاتف ببطاقات الاتصال الخمسين إلى قارة أخرى وبلد بعيد وشوارع لم تمش فيها منذ سنوات عشر. تدخل بيوتا تسكن فى أعماق روحك وتسأل عن أحباب وأصحاب غادرتهم طويلاً لكنك تكتشف مجدداً أنهم لم يغادروك.

"جسدك مملوء بالريح والبرد.. وروحك تخيم عليها سحب مخنوقة لا تمطر ولا تنقشع .. من الخارج تبدو أصغر من عمرك لكنك من الداخل تنهار بسرعة مخيفة.. مفاصلك كلها تنتحب، بل تصرخ من شدة الألم.. إنك تمشى على أطراف عظامك العارية فوق الأرض المملوءة بالحصى والحفر والصخور أحيانا.. هل

فقدت أحداً تحبه؟ علاجك فى الدافئ والحار من الأعشاب والأطعمة والعلاقات القلبية. سأعين لك الأعشاب والأطعمة أما علاقاتك فلا أحد غيرك يعرف دروبها..".

كل ذلك قرأه الطبيب التبتى الراهب وهو يغمض عينيه ليصغى لنبضك الذى تتحسه أنامل يمناه عند معصمك الأيمن. كان الأسى أسبق من الدهشة، فثمة من أدهشك بما يشبه ذلك فى مومباى، طبيب الأيوروفيدا الهندى الشاب فى مستشفى بودار تحسس نبضك فاتسعت عيناه استغرابا وقال لك: "عنصر (الكافا) زائد عندك بما لا يتناسب مع مظهرك الخارجى.. الكافا هى الريح والبرد وتشتكيها أكثر ما تشتكيها عضلاتك وعظامك". الأطباء العصريون قالوا لك من قبل شيئا كهذا ، لكنهم لم يذهبوا فيك أبعد من مفاصلك. قالوا إن الغضاريف تتآكل وعظامك تتحرك عارية الأطراف على بعضها البعض مما يهددها بالتآكل هى الأخرى، وجذور الأعصاب بين فقرات ظهرك تعانى الانسحاق. قالوا لو أن الأمر يتعلق بالمفاصل الكبيرة وحدها عند الركبتين مثلاً لنصحوا بتركيب بدائل معدنية أو بحقن المفاصل المتآكلة بغضاريف مأخوذة من الأجزاء السليمة مع زرع طعوم عظمية لأماكن التآكل. سخرت بمرارة من الصورة التى رسموها لهيكلك القابع فى تلافيف جسدك. فأنت فى نهاية الأمر تنهض على هذا الهيكل

وتطوف به أرض الله الواسعة بما لا يقوى عليه كثير من البشر. من أقصى شمال العالم إلى أقصى جنوبه. ومن شواطئ المحيط الهادئ إلى شواطئ المحيط الأطلسى. تتألم أحيانا ويشتد بك الألم لكنك تواصل سفرك الطويل الذى حتمته ظروف عملك ولونته اختياراتك. تلجأ إلى المسكنات والأحذية الطبية ودعامات الظهر ومساند العنق وتسافر. وها أنت فى ظلال جبال الهيمالايا، فى بقعة يحج إليها بوذيو التبت من أتباع الدالاى لاما. تذهبَ إلى طبيب من أطبائهم التقليديين لا رغبة حقيقية فى تشخيص أو علاج، ولكن لتشبع فضولك الباحث دوما عن المدهشات. تخلع نعليك عند مدخل رواق المعبد المائج بدخان البخور وقرع الأجراس وموسيقى الأوانى وتراتيل أصوات الرهبان المتربعين فى صفين طويلين متقابلين يقرأون الكتب العتيقة المستطيلة النحيلة التى تتعاقب صفحاتها إلى الأمام. أبصرتهم يديرون مسابح الماندالا ويتمتمون فى خفوت. ووصلت إلى الحكيم فى الغرفة القرمزية قليلة الشموع غامرة البخور. لم تتكلم، لم يتكلم. انحنى وهو جالس متربع يحييك فانحنيت تحييه ثم جلست بقربه فتناول ذراعك وأغمض عينيه يجس نبضك. أنبأك بركام الريح والبرد فى جسدك وتراكم السحب المخنوقة فى روحك. لم تندهش كثيرا لوصوله إلى مفاصلك عبر لمسه لنبضك، لكنك تهاويت فى داخلك

استغراباً وأسى لحديثه عن الفقد. ما علاقة فقد الأحبة أو افتقادهم بآلام المفاصل؟ سألت نفسك وأنت تخرج مرتديا حذاءك الذى كنت خلعته عند الباب. وتعلق السؤال فى أفق خاطرك وأنت تسلم جسدك لأمواج الطائفين حول المعبد. فجأة تذكرت بجلاء أن زوجتك أصيبت بالآم "الكتف المتجمدة" فى أعقاب وفاة والدها، أختها كذلك عولجت من التهاب روماتيزمى عاصف بركبتيها فى الوقت ذاته. تذكرت حالات مشابهة عديدة، وتساءلت مأخوذا عمن فقدتهم.. أبوك وأمك؟ ماتا منذ سنوات بعيدة. حبيبات الصبا والشباب؟ ذهبن بعيدا فى الزمان والمكان حتى أوشكن على التلاشى فى كثافة الحضور اليومى الحى لزوجتك والأولاد. أصدقاؤك؟ بعض أهلك ؟ نعم، نعم، هم الذن تفتقدهم منذ غادرت لتعمل فى بلد آخر غير وطنك. أسرتك الصغيرة حملتها معك. أما هؤلاء فقد تركتهم، يفتقدونك وتفتقدهم. نعم أصحابك وأحبابك، اختيارات العمر التى غادرتها، الناس، والأماكن، صورتك التى تتمزق بابتعادك عنهم، ذاتك التى تتفتت بتنائيك والاستوحاش لهم.

ها هى عظامك تصرخ منادية أياهم الآن، فماذا تفعل وأنت فى قارة أخرى. يبلغ ألم مفاصلك أقصاه رغم أنك تمددت فى غرفة الفندق المغلقة، تأمل فى أن يسكِّن ألمك سماعك أصواتهم من وراء هذا المدى ومن بعد تلك السنين. معك دفتر الهواتف

الصغير القديم، لابد أنهم فيه جميعا. وحتى لا تنسى منهم أحداً تكتب قائمة منفصلة بأسمائهم وأرقام هواتفهم لتوالى طلبهم تباعاً، تختار عشرين من أخلص من أحببتهم وأحبوك لتحادثهم ببطاقات الاتصال التى دفعت فيها ثمن رحلة ثانية كنت تعتزم تكرارها لتعاود رؤية قمة جبل افرست عبر نافذة طائرة تتعلق بموازاة القمة وفى مواجهتها . القمة الهرمية الداكنة الموشاة بالثلوج بين قمم الهيمالايا التى تبدو ناصعة البياض ومضيئة تحت ضوء الشمس ومعلقة فى زرقة السماء إذ تختفى تحتها الأرض عند ارتفاع ثلاثين ألف قدم. استبدلت قمم الثلوج الطائرة بأشواق روحك إلى أصحابك القدامى فى وطنك لعلك تزيل بعضا مما تراكم بين عظامك من ثلوج.

أحمد، عامر، مصطفى، عماد، علوان، حمدى، محمد، شاكر، محمود، سالم، عاطف، على، عبد الرحمن، يوسف، جمال، عبد العزيز، حسن، إيمان، جار، علاء. عشرون اسما ما أن يتوارد أحدها إلى خاطرك حتى تنبض أيام وتشع عواطف وتنبعث ذكريات. حضور كل واحد منهم يساوى استحضار قطعة من عمرك. كنت تعى دائما أن استعادة أصدقاء الصبا تطهير من أكدار السنين. لكنك لم تتصور أبداً أنهم وسائد حانية لعظامك. وها أنت تعرف ذلك، بل توقن فى حقيقته. ترتب الأسماء ونصف

قبالتها الأرقام، وتهيئ أول بطاقات الاتصال الخمسين، لكن عواطفك تختار على هواها من القائمة من تختار فى اللحظة الأخيرة وفور أن "يفتح" الخط الدولى. ساعة كاملة، ساعة عجيبة من الإخفاق المتتابع.. تطلب رقما فيرد ويجيبك من الطرف الآخر صبى يخبرك أن أباه صديقك غير موجود، فهو مثلك سافر ليعمل فى بلد آخر منذ مدة. مكالمة أخرى ورقم آخر وترد فتاة لا تعرفها تخبرك بأن والدها يعود متأخرا إلى البيت لأنه يعمل فترة إضافية فى المساء. وتتوالى الإخفاقات.

قطار متتابع من المكالمات لا ينجح ولو مرة واحدة عبر ستين دقيقة من الاتصال الدولى فى التوقف عند محطة واحدة من محطات زهرة عمرك. تخفق المحاولة فتحس باشتعال الآلام فى مفاصلك واشتداد الانقباض فى قلبك، تندفع متوتراً فى محاولة أخيرة، تطلب رقما وتنسى لمن هذا الرقم، ويجيئك الصوت من الجانب الآخر سائلاً: "من"، فتجد نفسك فى حيرة إزاء الصوت الذى لم تتعرف عليه ترد على السؤال بسؤال مماثل: "من"؟.. ويحتد عليك الصوت الآخر: "انت الذى طلبت وتسأل؟"، وفى برهة الدوار حيرة لعجزك عن تمييز صاحب الصوت تنطق قائطا: "آسف".

تضع السماعة فى بطء ذاهل بينما بصرك يعبر زجاج النافذة المغلقة ، تحدق فى حلقة البشر الزعفرانية المتماوجة الدائرة حول القبة الهائلة البيضاء الصماء.. تحدق فى شرود.

حقيبة بلون الشفق والرمل

إليك واحدة من تلك اللحظات يا محمد.. فى بيت تشيخوف الذى حولوه إلى متحف. فى الصالة التى تفضى إلى غرفته وغرفة شقيقه. هناك إلى جوار الباب يوجد مكتبه ذو الطلاء الأبنوسى وعليه غطاء من الجوخ الأخضر، ومصباح بمظلة، وآخر ورقة كتبها. وفى الوسط طاقم جلوس دقيق بديع بكساء من قماش الخام وحواف بنية. وفى الركن خزانة نحيلة من خشب البلوط لها واجهة كاملة من البللور الصافى. وما أن نظرت إلى الرف الأوسط داخل الخزانة التى كان يستعملها تشيخوف لحفظ أدواته الطبية حتى .. انذهلت.

تسمرت أمام الخزانة محدقاً، جاحظ العينين لابد، فأعلنوا حالة الطوارئ فى المكان، وخضعت على الفور لرقابة مشددة من أمناء المتحف وحراسه. ولابد أنهم ارتابوا فى نواياي تجاه محتويات الخزانة التى أدمت التحديق إليها، خاصة تلك الحقيبة التى كان يستخدمها تشيخوف.. الطبيب.

كانت حقيبة صفراء برتقالية، حقيبة من جلد الغزال يا محمد.. تماماً تشبه الحقيبة التى حلمت بها منذ ثلاثين سنة، وكانت سبباً لصدام جنونى مع أمى المسكينة ، وسبباً لاكتشاف لعله هو

الذى مازال يبقينى على قيد الحياة.

إن هذه التزامنيات، هذه التوافقات الغامضة بين أشياء متباعدة، هذه التجليات تذهب بلبي يا محمد.. لهذا صرت من عشاق يونج الذى حاول إضاءتها، ومن ثم ساءت علاقتى برؤى فرويد الجزئية المتعسفة . بل ساءت علاقتى براهن الطب النفسى كله، وصرت الآن من أنصار المدرسة المضادة للطب النفسى.. أى أننى الآن ضد مهنتى، مفارقة غريبة، وقد تبدو مربكة، لكن هذه حكاية أخرى.

لقد أذهلتنى حقيبة تشيخوف، الصفراء البرتقالية الوردية تلك. ذلك اللون الذى هو خليط من لون الرمل، ولون الشفق فى الصحراء، وللشفق لون مختلف جداً عندما تراه فى أفق الصحارى.. خليط من البرتقالى والوردى، برتقالى خاص جداً، ووردى مثله، وكلاهما مثل الصحراء فى وضوحها الذى يوحى بالغموض.. بالأبدية.. شىء يشعرك بأنك ذرة فى ملكوت لا نهائى، بأنك ضيئل ومحاط بالوحشة. ومن ثم تتراجع ثم تتلاشى كل الخصومات الكبيرة والصغيرة فى نفسك، ويصير هاجسك ألا تضيع وألا يحرقك العطش أو تشويك الشمس. تغدو صامتاً وباطنياً على الأرجح، وتفرح بأصغر ظل يتحرك بقربك.

إنه لون الشفق فى الصحراء يا محمد.. هذا الذى ينتسب إليه لون جلد الغزال، ولابد أن كل جلد مصبوغ بهذا اللون ينسب إلى جلد الغزال. لكننى لا أعرف على وجه الدقة هل كانت حقيبة تشيخوف من جلد الغزال أم بلونه فقط. ولا أعرف إن كانت الحقيبة التى تشبهها تماماً، والتى حلمت بامتلاكها منذ ثلاثين سنة من جلد الغزال حقاً أم أنها فقط بلونه. لا أعرف، لكننى على أية حال أتذكر كم كنت أطارد أمى بإلحاحى حتى تلح بدورها على أبى كيما يشترى لى حقيبة من "جلد الغزال".

أتذكر أننى كنت أتبعها بإلحاحى حيثما ذهبت، وفى ذلك اليوم رحت أهددها بأننى لن أذهب إلى المدرسة إلا ومعى حقيبة "جلد الغزال". بل أقسمت لها أننى سأمزق حقيبة "الدمور" القبيحة تلك إن هى لم تعطنى وعداً فورياً. وكانت أمى عندئذ فى ركن المطبخ، أمام "وابور جاز" يطن وعليه حلة نحاسية مسودة يتصاعد من تحت غطائها البخار. التفتت أمى نحوى، ورأيتها كما لم أرها من قبل.. هى العصبية أبداً، التى تحمل ثقل هموم بيت كبير به أحد عشر فرداً، بطعامهم، وشرابهم، وغسيلهم، وذهابهم، وإيابهم. التفتت نحوى مشرقة بضحكة غريبة، معابثة ومبتهجة، بل لعلها اهتزت بجذل راقصة لى رقصة صغيرة وهى تقول: "يا سلام.. غالى والطلب رخيص.. أول ما يبيض الديك يانن عينى".

وجن جنونى.

لقد كانت تسخر منى إذن، بل وتعنى أننى لن تكون عندى هذه الحقيبة أبداً. مجنوناً طرت إلى الصالة حيث كنا نضع حقائبنا المدرسية على "الترابيزة" الحديدية التى تتحول عند الحاجة من طاولة للمذاكرة إلى مائدة للطعام، والتقطت حقيبتى الدمور. وأمام عينى أمى المدهوشة اختطفت سكين المطبخ، ورحت أضرب الحقيبة. أمزقها . وإذ بأمى تنقلب إلى عصبيتها وتنقض علىّ، تضربنى لتمنعنى من الاستمرار فى تمزيق الحقيبة. واشتعل جنونى.

إننى أعرف تماماً كيف ينشأ الجنون ابتداء من تلك اللحظة، لهذا أزعم أننى أفهم مرضى الهوس خاصة، ومرضى الهياج الوجدانى عامة. فما هى إلا لحظة. لحظة يبرق فيها بارق، ويختلط الصوت بالضوء والحى بالجامد، ويندفق هذا كله باتجاه الإنسان كأنه ينصب عليه من فوهة خلاط جهنمى. ولا ملاذ. لا شىء غير الصراخ، محاولة لوقف هذا الوجود المصهور والمصبوب على الإنسان. صرخت وأنا ألوح بالسكين فى وجه أمى فارتعبت، وتراجعت.

أخذت حبيبتى المسكينة ترجع بظهرها، نصف خطوة فنصف خطوة، وسكت العالم يا محمد. هل تعرف هذه اللحظة التى تعقب

هطول مطر عنيف.. فجأة تشرق الشمس، لكنها تشرق على دنيا أخرى، مغسولة بفظاعة حتى أنها تبدو مسحورة. تلك كانت لحظة مسحورة، عندما راحت أمى تتراجع أمامى وأنا أرفع السكين. مؤكد أننى لم أكن لأمسها بسوء، ومؤكد أنها لم تكن خائفة منى. لكنها كانت مذعورة لحالى. مذعورة ومحسورة، ولما وصلت إلى الجدار تهاوت مرتكنة عليه. ونبست : "ياربى.. يارب"، وانفجرت فى البكاء فانفجرتُ صارخاً أجرى وفى يدى السكين: "هاااااه".

آه يا محمد من هذه الأشياء التى تُحسُّ ولا تقال ويصعب وصفها. لقد رأيت فى لحظة أن أمى غلبانة، جميلة وغلبانة، وأننى غلبان، وأن الغلب كثير وثقيل، وأن الدنيا قاسية. ولم تكن صرختى الجنونية وأنا أجرى رافعاً السكين بغير هدف إلا تعبيراً عن ذلك: "هاااااه"، فهى ليست "آه" ، بل هاااااه غريبة انطلقت من غياهب صدرى وقذفت بى من باب الشقة. وعلى ضوء شعاع ضئيل من بصيرة باقية اتجهت بى قدماى إلى السطح بدلاً من الخروج إلى الشارع. كان لابد لى أن انتهى إلى مكان ما، وكان المكان عشة الدجاج، وجهاً لوجه أمام الديك. فهل كانت هذه ترتيبة من ترتيبات يونج اللاسببية؟.. ربما.

كان عمرى عشر سنوات يومها. عشر سنوات، أى ثلاث سنوات بعد بداية القدرة على التجريد لدى الطفل. بداية الفصل ما

بين التخييلى، والحلمى، والواقعى. قبل ذلك يتعامل الطفل، تقريباً، مع هذه الأشياء على قدم المساواة. بعدها لا يحدث ذلك إلا فى الجنون. وأعتقد أننى لم أكن مجنوناً يومها. ثم إننى كنت أبكى، أبكى بتوحش وقد قبضت على الديك وأنا راكع وهو بين ركبتى ويدى اليسرى، بينما كانت يدى اليمنى ترفع السكين. هذه المرة كنت سأطعن، سأطعن حقاً، كنت سأمزقه إن لم يستجب لتهديدى: إما أن يضع البيضة أو أخرجها من داخله.

لحظة بدأت هياجى كان ذلك لإدراكى أن أمى تسخر منى. ثم أدركت أنها تسخر من حالنا. وبعد ذلك أدركت أن بيضة الديك الذهبية التى يضعها مرة فى العمر، بيضة الحكايات السحرية، أيقنت أنها حقيقية وموجودة فى أحشاء الديك الممسوك بين ركبتىّ ويدى والسكين. كنت سامزقه أو يضعها. يضعها. والله يا محمد، كنت أصرخ فيه فيرتعش الدجاج الذى تكوم فى الركن ينظر بدهشة ووجل. ثم أخذت أصرخ بلا زعيق، بغل، وبتحفز، وبشعور رافض تماماً، تماماً، لتكذيب وجود بيضة الديك الذهبية تلك.

نحن يا محمد لا نستطيع تخيل إلا ما هو موجود، أو موجود بطريقة ما غير معروفة، وما التخيل إلا وسيلة للوصول إليه. ذلك ما يسمونه، ربما، بالنموذج المعرفى الأول.. المطمور فى أعمق

طبقات النفس. وما الفصل القاطع بين المتخيل والمحسوس إلا محض غرور. تيه فارغ بما نملكه من حواس، قد تستقبل الكثير، لكنها تعمى عن الأكثر. إننى الآن مؤمن بذلك، ومن يومها، يوم رأيت الديك المحاصر يبدى هذه التحولات الغريبة. وهنا فقط يمكننى أن أتحدث عن الجنون، فلو لم أكن طفلاً ورأيت ما رأيت لجننت. لكننى كنت طفلاً، وقريباً من العالم المتآخى: عالم المحسوس وغير المحسوس، المتكاملين، واللذين يسفران عن نفسيهما فى لحظات نادرة من لحظات القدرة القصوى على الاستقبال. ومنها لحظة الديك تلك.

فى العشة التمت الدجاجات على نفسها وتزخنقت، وكفت تماماً عن القوقأة، بل عن الحركة، وإن ظلت تنظر نحونا أنا والديك بعيونها المدورة المدهشوشة.

أما الديك فإنه التفت برأسه عدة مرات.. أخذ ينظر إلىّ بكل عين مرة.. عيونه الكهرمانية الصافية تلك. ثم انتفش. ووجدت نفسى أوسع له حتى يأخذ مجده. لكن يدى ظلت معلقة فى الهواء فوقه وبها السكين. وشيئاً فشيئاً راحت هذه اليد تهبط مرخية أصابعها، تاركة السكين يقع غير بعيد. كان الديك يشف أمامى يا محمد. فى البدء زهت بشدة ألوان ريشه المنتفش. ثم ثبت على هذا الوضع من الانتفاش وتألق الألوان، وراح يشف. ألوان الريش

نفسها لكنما تشف. صار ديكا من زجاج حى، ملون، وفى قلب الزيغ اللونى داخله أخذت شمس صغيرة تولد.. تشتعل بلون ذهب هادئ . وما أن تحركت أنا حركة يسيرة حتى اختلفت زاوية النظر وتبينت دحو هذه الشمس الصغيرة.

كانت لحظة مثل السرنمة، تلك التى تلت هذا التجلى. أتذكر أننى رحت أمد يمناى التى سقطت منها السكين. أمد يدى مبسوطة وملتمسة وتدنو ببطء مسحور. هل استمرت هذه اليد فى تقدمها حتى غاصت فى الجسم الأثيرى لذلك الديك الشفيف وخرجت بالكنز. أم أنه استدار وتحرك ومنحنى ذهب أعماقه بطريقة ما. لا أتذكر، ولم أستطع عبر ثلاثين عاماً أن أتذكر. تلك حالة أقرب ما تكون إلى النسيان التراجعى، حيث ينسى المرء وقائع ما قبل الصدمة التى ترج الدماغ. ولابد أن استقرار ذلك الألق الذهبى فى يمينى كان بمثابة صدمة. ضربة خرافية ارتج لها كيانى كله وليس دماغى فقط، فنسيت ما استبقها مباشرة. لكننى أتذكر هذا النور الذى خطف بصرى وقد نام فى راحتى. كانت البيضة من ذهب غريب. يشف دون أن يفقد ذهبيته، وكنت أتبين خلال شفافيته ثنيات أصابعى وخطوط كفى. ورغم أننى كنت طفلاً إلا أننى حزمت أمرى بغريزة لا أظن إلا أنها تخبئ خبرة سبعة آلاف عام على الأقل. عمر الحضارة المكشوف عنها لدينا نحن أبناء هذا

الشعب القديم. نعم. ألا ينتابك هذا الإحساس يا محمد، عندما تنظر إلى الأطفال عندنا. خاصة هؤلاء الذين يعملون كصبيان ورش وفى الأسواق، ألا تحس أنهم أطفال عواجيز جداً؟..

وبخبرة هذا البعد الغائر من الزمن، بحكمة هذا الموروث اتخذت قرارى، بل مجموعة قرارات تتعلق بالكنز الذى خبأت سطوعه فى أعمق تلافيف ملابسى. فلا بوح. ولا بيع. إنه سرى. سرى وحدى.

الآن اتحدث عن ذلك إذ صار مستحيلاً العثور على بيضة الديك الذهبية تلك، حتى لو حددت المكان الذى دفنتها فيه. دفنتها فى مكان لا يخطر على بال أحد غير طفل أوحيوان من حيوانات الجحور، وتغيرت تماماً بعد ذلك.. صرت صموتاً وقنوعاً ولا مطالب لى.

كنت على موعد دائم مع كنزى، أتسلل وأقف على مقربة من المكان الذى دفنته فيه، وأغمض عينى مستعيداً ألق تلك الشمس الصغيرة فى كفى ، فيمتلئ بها كفى.. تلك البيضة النادرة من الذهب الشفاف، صرت أرى خلال شفافيتها ليس مجرد خطوط كفى وإنما.. صرت أرى خلالها ما أحلم برؤيته وامتلاكه.. كل شىء كنت أطلبه، أراه، أمتلكه بكيفية ما. حقيبة جلد الغزال فى البداية، ثم أطعمة وأشربة وملابس ولعب شتى. بعد ذلك صرت

أمتلك عبرها كل ما يناسب العمر فى حينه.. أجمل النساء، وأجمل المدن، وأجمل السفن، وأجمل السحب.. وأعز الانتصارات. وضروب من الحرية والفرح والتعزى لا قبل لواقع بها.

فى كل ما اعترض سبيلى من آلام ووحشة ويأس كان هذا الكنز المخبوء ملاذى. لعلك تعرف يا محمد أننى ضيعت حبين كبيرين، وذقت مرارة الحبس خمس مرات، وقطعت شرايين يدى مرة. وعشت دائماً على الحافة. عانيت إحباطات كثيرة، وانهزمت مرات، وغبنت، وأخطأت. ولم أرض عن شكل العالم من حولى أبداً. لهذا لم أستقر طويلاً فى مكان. وحتى هذه اللحظة تمضى حياتى كنوع من الفرار المتواصل. ولا عزاء لى إلا إحساسى بامتلاك هذا الكنز، الذى ما أن استعيده حتى يستوى كل شيء ويدنو لى ما أريد.

لقد تم رصف المكان الذى دفنت فيه كنزى. أفزعنى ذلك فى البداية، ثم وجدتنى أشرق مطمئناً فى منطقة أخرى من التفكير، فبهذا الشكل صار الكنز أعمق أختباء وأبعد منالاً من أن تدركه يد. إنه يظل لى وحدى. ولعلى قبل موتى أشير إلى مدفنه لأحد ما، إن كنت سأرى مناسبة لذلك. أما إحالته إلى ممتلكات عامة فهى بعيدة عن ذهنى تماماً.. تماماً. فهناك أشياء لا يصونها إلا الامتلاك الفردى لها. وما كنزى إلا من هذا النوع.

غريبة هى الحقيبة التى ترقد فى الخزانة ذات الواجهة الزجاجية فى بيت تشيخوف. أذهلنى تطابقها مع تلك التى حلمت بها حتى جعلتنى استدعى حكاية كنزى ذلك. يا الله. اللون نفسه والهيئة والمقبض الحنون والجيوب الخارجية والأقفال. المفروض أنها حقيبة طبيب لكنها مختلفة عن أى حقيبة لطبيب. إننى على استعداد أن أقسم بأنها الحقيبة نفسها التى حلمت بها يوماً، وقادنى حلمى بها إلى اكتشاف ما اكتشفته. وإننى بمقدار يقينى فى وحدة الكون، لا أشك لحظة فى أن بارقاً برق لسبب ما فى الوجود، يوم كنت فى العاشرة، ونقل إلى ذهنى الحالم صورة تلك الحقيبة النائمة فى خزانة ذات واجهة زجاجية.. على بعد آلاف الأميال، وراء بحرين، وسلسلة جبال راسخة، وفى أقاصى قارة بعيدة.

لم أكن قادراً على شرح ذلك كله لأمناء المتحف الذين لفت أنظارهم وقوفى الطويل أمام الخزانة، وأثار ريبتهم تحديقى فى تلك الحقيبة. ولعلهم لمحوا رغبتى الشديدة فى أن أتلمسها. ولعلنى أنجح فى تلمسها يوماً ما. وإننى على يقين أنها ستكون خالية مما يتوقعون وجوده فيها. لن يكون فى قلبها النائم إلا بريق لذهب مسحور، لم ينطفئ رغم مرور أكثر من مائة سنة، ولعله لن ينطفئ أبداً.

طريــق القناصــة

الثامنة صباحاً تبدو ساعة مبكرة فى سراييفو الخارجة لتوها من الحرب. وهو يستشعر الغلظة فى أن يذهب مبكراً إلى ملجأ البنات ليناظر حالة الصبية التى أعطوه ملفها بالأمس، والتى رشحتها الجهات الصحية ليفحصها بأولوية. إنها تستحق ذلك، بل تبدو له حالة نادرة ومؤثرة حتى أنه كان يتعجل مرور الوقت الذى يمضى ببطء شديد داخل الفندق الذى لم يستكمل خدماته بعد، فتناول إفطاره على عجل، واندفع خارجاً إلى التقاطع الفسيح أمام الفندق.

راح يعبر شارع فويبودبوتنكا، ولاحظ أن البشر القليلين كانوا يمضون بسرعة لا تتطلبها الأرصفة شبه الخالية والصباح الغافى، وأبدت أعوادهم النحيلة فى مجملها انحناءه ما، كأنهم ينوءون بعبء غير مرئى، أو أنهم اعتادوا هذه الأنحناءة الخائفة من انصباب الطلقات عليهم بينما يعبرون الشوارع المكشوفة تحت أبصار ومناظير القناصة المتمركزين فوق التلال المحيطة بالمدينة. شارع فويبودبوتنيكا على وجه التحديد أسموه "طريق القناصة" لأن عابرية من بشر ومركبات كانوا هدفا دائماً لطلقات البنادق الآلية ومدافع المورتر، بل والمدافع الثقيلة التى أحرقت

عيون الأبنية العالية فى مدخل الشارع، وبعض السيارات وعربات الترام التى تفحمت فى أماكنها .

اجتاز طريق القناصة موغلاً فى شارع المارشال تيتو الطويل الفسيح وكان الترام يدرج مصلصلاً فى فضاء الشارع. عودة الترام إلى الحياة فى سراييفو كانت تعنى الكثير. رمموه وطليت العربات بألوان زاهية تتخللها رسوم وكتابات لخطاطين غير محترفين لكنهم متحمسون كما يبدو من أفراطهم فى الزخرفة. عبر الشوارع الجانبية كان يرى التلال العالية البعيدة، وشعر برعشة وهو يتساءل عما إذا كانوا رحلوا عنها بالفعل وعن احتمال أن يكونوا هناك مازالوا. كانوا يصوبون عبر فتحات هذه الشوارع على المارة فى الشارع الرئيسى، لهذا سدت فتحات الشوارع بمتاريس من كتل خرسانية بطول قامة إنسان، وكان على الناس أن ينحنوا ويسرعوا وهم يمرون أمام هذه المتاريس. أى حشد من الأعراض النفسية يمكن أن تلحق بالبشر فى لحظات وجيزة كلحظات توقع الموت عند المرور أمام هذه الكتل الخرسانية؟ البنت لم يحدث لها ما حدث على خلفية كهذه. جعله ذلك ينظر إلى ساعته، وعاد يقطع شارع المارشال تيتو على الرصيف نفسه وإن فى الاتجاه المعاكس.

لم يقرأ عن حالة تماثل حالة البنت فى مراجعه الطبية، ولم تصادفه حالة تشبهها فى حياته العملية الطويلة، ولم يسمع واحداً من زملائه فى أكثر من مكان بالعالم يتحدث أو يكتب عن حالة تقاربها. فقط يتذكر أنه قرأ عن شىء مماثل فى كتب سلوك الحيوان المقارن التى يقتنيها حالة فريدة تحدث للإناث الصغيرات من الفيلة الآسيوية فى الأسر. فما وجه المقارنة، وقد كانت البنت طليقة فى الغابة عندما سفحتها الأعراض.

التقرير الذى قرأة لم يشر إلى سبب فرار البنت مع معظم نساء القرية والأطفال إلى الغابات والجبال، لكن الأحداث التى تكررت من قصف القرى ثم مداهمتها وقتل الرجال وتقطيع الأوصال واغتصاب النساء كانت كافية لأن تدله على رعب الدافع الذى جعل بنتاً صغيرة، طفلة كان عمرها آنذاك تسعة أعوام تشرد فى مجاهل الغابة وتشعب الوديان وبين يديها طفل رضيع لم يشر التقرير الطبى إلى طبيعة صلة القرابة أو الجيرة التى تربط بين الرضيع والبنت، وعول هو على أن يتبين ذلك خلال مناظرته اليوم للحالة.

فى دروب الغابة ومفاوز الجبال تشتت سرب النساء والأطفال وكانت هى متعبة وجائعة وتنوء بحمل الرضيع عندما وجدت كوخاً مهجوراً على حافة الغابة. لم يكن الرضيع يصرخ، لكنه

يتلوى متألماً ويفتح عينيه بين موجات الألم وينظر إليها فتبكى متحيرة بعيون خاوية إذ لم تعد لديها دموع، كانت تحس بجفاف فمها وعينيها، وعندما رقدت من شدة التعب على أرض الكوخ محيطة الرضيع بذراعيها بدا لها أنه يفتقد ثدى أمه فأعطته ثديها الصغير الذى لا حليب فيه لعله يهدأ ثم تبينت أنه ساكت تماماً ومغمض عينيه ومطبق فمه، فاجتاحت كيانها الطفل موجة من لهيب، وكانت أول مداهمة للحالة.

وصل إلى ملجأ البنات فى التاسعة والربع تماما، واستقبلته المديرة فى مكتبها الصغير، هى نفسها واحدة ممن شردتهن الحرب، رأت ابنها يقتل أمام عينيها، كان جميلا وفى السابعة عشر، فقدت أيضاً زوجها وإخوتها، لم تعرف إن كانوا ماتوا أم أنهم على قيد الحياة فى مكان ما. مرت به على الملجأ وحاول أن يحدس من تكون البنت بين الأخريات دون أن تسميها له المديرة، لم يستطع. كن جميعاً ضامرات، كأطفال كهول، فى زى قرمزى باهت، كاسفات ويحدقن بنظرات مجوفة. بينهن من رأت أهلها يذبحون ، ومن فقدت كل أقاربها، ومن اغتُصبت. وعندما نادت المديرة صاحبة الحالة التى جاء لمناظرتها أحس بوجل غامض كأنه طالب طب صغير يتأهب للوقوف بين يدى ممتحنيه.

عندما يعجز الطبيب النفسى عن العثور على طرف خيط انفعالى فى ملامح أو إيماءات من يناظره خلال أول دقيقة من الفحص يصير كمن وقع فى شرك. كانت صبية صغيرة متماسكة ولا تشى ملامحها بأى انفعال، لا عداء ولا مودة، فقط شكت من أن الحالة تداهمها فجأة ، وتكون خائفة من تلويث الثياب والفراش. كان الطبيب منشطراً يفكر، كأنه فى لجنة امتحان إكلينكى، يبحث عن آليات حدوث الحالة لعله يعثر على آلية مضادة لمنعها وكان يعانى شتاتاً وجدانياً غامضاً كأنه ضائع فى غابة، أو صحراء، أو فضاء كونى. وفكر فى تقنية التحليل لعله يمسك بشىء ما.

كانت هناك فجوات فى القصة المرضية يريد أن يملأها، وراح يحض البنت على الحكى، الحكى بتفصيل، لكنها لم تكن تقول شيئاً أكثر مما فى التقرير الذى قرأه عن حالتها. ثمة ثقوب مظلمة فى الحكاية، وهو يستعيدها لعل هذه الثقوب تمتلئ بالضوء لكنها لم تعط المزيد. راح يشرد ناظراً إلى الخارج فيكتشف أن الملجأ يقع عند طرف فيوبود بوتنكا حيث تظهر بقعة حمراء برتقالية مرسومة على الأسفلت، إنها الطريقة التى سجّلت بها سراييفو مواقع المجازر من جراء سقوط طلقات القناصة على الناس. وثمة مقبرة تحت أعشاب الرصيف المقابل كانت شواهدها تتراءى له من البعد وكأنها أوراق بيضاء

فى خضرة العشب. وأدرك أنه شرد عندما انتبه إلى صمت البنت.

أراد أن يسألها أين توقفت فى حكايتها، لكنه ابتلع سؤاله إذ انتبه إلى انفعال وجهها، انفعال كتيم يكظم ما بدا أنها يوشك على تفجيرها من الداخل. وامتد بين وجهه ووجهها سكوت ثقيل كشف عن صوت رتيب يتسارع.. صوت قطرات تتتابع على لجة، ونهض بلا إرادة رافعاً ذراعيه فاتحاً فمه كمن يطلق صرخة بلا صوت. كان صدر البنت مبتلاً ببياض يرشح غزيرا عبر قماش ثوبها القرمزى الباهت وكأن صنبورا لحليب دافق قد انفتح هناك.

راحت قطرات ذلك الحليب الخفيف حليب عذراء تتساقط متسارعة فتكون بركة لؤلؤية البياض تتسع تحت قدميها، وتزحف نحو قدميه.

قارب صغير يتسع لاثنين

ثمة متعصب مقزز حرض على ضرب السد العالى بقنابل نووية عند اشتعال نزاع مع مصر.

بكل مدخراته أشترى القارب المطاطى وحصل على الرشاش بثمن زهيد . اشترى أيضاً تيناً مجففاً وتمرا وخبزاً يابساً وجالوناً لماء الشرب. وضع القارب مطوياً على قاعدة العربة المعدنية الصغيرة ذات العجلتين. وفوق القارب وضع علبة الأطعمة وجالون الماء. وترك الرشاش معلقاً فى كتفه وهو يدفع العربة متجهاً إلى البيت.

كانت المدينة الكبيرة شبه صامتة برغم كثرة الناس وحركتهم المسرعة فيها. وعلى كل الأرصفة وفى عرض الشوارع والميادين كانت القوارب والزوارق والمراكب والسفن تنتصب متوازنة بقطع الخشب والحجارة تحت بطونها وجوانبها. كانت هناك أيضاً غواصات صغيرة مما يستخدم فى سياحة الغوص. ورأى الأسلحة داخل وفوق كل هذه المركبات المهيأة للطفو. كل أنواع الأسلحة بدءاً من البنادق القديمة فردية التعمير وحتى راجمات الصواريخ. وعلى ظهور عبارات كبيرة بنيت فى الميادين أبصر مقطورات الصواريخ المزودة بـــأنواع شتى من

الرؤوس الحربية. كل أنواع الرؤوس المتاحة لدى الجيوش العربية وفى السوق السوداء لتجارة السلاح فى العالم.

أحس بتأرجح الرشاش على ظهره فاجتاحت عموده الفقرى رعشة. لم يتصور نفسه أبداً فى دور القاتل أو القتيل. وفى كل رسوم كتب الأطفال التى أنجزها ظل يتحاشى رسم الجروح والدم. وعندما كان يضطر لرسم بقعة دم كان يلونها بالأخضر أو الأزرق أو الرمادى. أبداً لم يستخدم فيها اللون الأحمر. لكنه الآن لا يستطيع منع نفسه من تصور الجنون الدموى فى مواجهة الجنون المنتظر لو وقعت الجريمة.

وصل إلى البيت فقرر أن يصعد مباشرة إلى السطح ليحجز مكاناً للقارب. كان سطح البيت مزحوماً بالفعل. راى زورقاً خشبيا. وكانت هناك قوارب مطاطية منفوخة بأحجام مختلفة. بعضها يسع أسرة كاملة وبعضها لفرد أو اثنين. وكانت هناك أطواق نجاة عديدة. صغيرة ملونة كالتى يلعب بها الأطفال على الشواطئ. وكبيرة سوداء من قلوب أطر السيارات والباصات والجرارات وسيارات النقل. ولفت نظره طويلاً ذلك الزورق الذى صنعه العجوز ساكن غرفة السطح مع حفيده اليتيم. خلع العجوز باب الغرفة ومدده على الأرض وراح يعالج الباب مع الصغير ليصير طوفاً.

رفع القارب المطوى عن العربه المعدنية الصغيرة وبسطه فى المكان الخالى من السطح. وانحنى ينفخه بفمه. كان يحس بألم الانثناء وتتقطع أنفاسه كل بضع نفخات فيتوقف منتصباً ليستريح. ويهوله المنظر من حوله. صارت أسطح المدينة كما شوارعها وميادنيها حوضاً جافاً هائلاً يمتلئ بالمراكب وينتظر الماء.

عاد إلى الانثناء والنفخ فأوقفه الخاطر: "سيغرق كثيرون". لكنه استدرك على الفور: "وسينجو كثيرون". وراح يطل على أسطح وشوارع المدينة تحت عينيه لكنه لا يبصر إلا الطوفان. سيضربون السد. ستنفجر مليارات الأطنان من الماء صاعدة تبتلع السحب. ثم تهوى باتجاه الوادى المنحدر نحو البحر. هل سينشق الغلاف الجوى بضربة سوط هذا البركان المائى المخيف؟ ويتدفق من الشق سيل الأشعة الكونية المميتة فتنتحر الأرض؟ كل الأرض؟ أم تكتفى بتزلزل المنطقة واكتساح طوفان الماء هدوء البحر. تغرق كل السواحل حتى شواطئ أوروبا على المتوسط؟!

فكر متنهداً: سيكون ثأر العالم وليس ثأرنا وحدنا. سيدفع الثمن كل من انتمى إليهم أو ينتمى ولو بملمح. كل من دعموهم يوما من وراء البحار. وانحنى يواصل النفخ. لاحظ وهو منحن أن العجوز كان يملأ شقوق خشب الباب بالقار من علبة مسودة يمسكها بخرقة من القماش مما يشير إلى أنها ساخنة. يسأله

الصغير: "هل سيعوم يا جدى؟" ويجيبه دون أن يتوقف عن العمل: "سيعوم. سيعوم". وتأخذه الصورة القريبة إلى بعيد. سيهبط الماء على الوادى طوفانا. تغالبه القوارب والزوارق والمراكب والعبارات والغواصات وقمصان وأطواق النجاة. تغرق الحقول والبساتين والبيوت والعمائر.

سيغرق عشرات الملايين. وسيبقى عشرات الملايين، وستنطلق النار السوداء لتحرقهم من شمال ومن شرق وتعلق بأرجلهم من جنوب . لن يتبقى أمامهم غير البحر حقاً هذه المرة. وأى بحر. سيطلقون المزيد من جنونهم فيكونون كمن يُصر على اختيار فنائه. ثأر عظيم سيطال كل من يمت لهم بصله. ولا غفران. حتى هو سيوجه قاربة إلى ساحلهم لو تبقى لهم ساحل. سيذهب قاتلاً وقتيلاً هو الذى كره دائما أن يرسم ولو بقعة دم صغيرة بلونها الحقيقى.

هل سيحمل معه أصول لوحاته المائية التى يحرص عليها كثيرا؟ سؤال عاد يوقفه عن النفخ. يملؤه بالمرارة وهو لا يرى غير الماء الذى يغرق الماء. ثم ينحسر الماء. ينكشف الوادى المطمور بالغرين ويعود إلى الأطلال من تبقى من أصحابها. هل تبدأ الحياة من جديد؟

ينهضه السؤال إذ يتذكر صاحبته التى لم يفكر فيها من قبل كما اللحظة. يوقن الآن أن أحدا لم يحبه مثلها. وأنها بهذا الحب جديرة بأعمق حبه. يجتاحه الشوق إليها فيقرر أن يهاتفها ويلح عليها كيما تنضم إليه. يروز القارب بعينيه وهو واقف فيقدِّر أنه يمكن أن يحملهما معا.

وينحنى معاوداً النفخ بحمية، فيأخذ القارب شكل الاكتمال.

شرفة العطور

- توجد رائحة غريبة فى هذا البيت!
- هل شممتها أنت أيضاً؟
- إننى اشمها منذ اليوم الأول لمجيئنا.
- من أين تأتى هذه الرائحة؟

مكث الحوار يتكرر بينه وبين زوجته بصيغ مختلفة كل يوم لكنها تدور جميعا حول تلك الرائحة، حتى الأولاد أخذوا ينتبهون إليها ويكررون أسئلتهم بسمة الترديد والمبالغة التى ينعم بها الأطفال، تحولت الأسرة إلى خمسة أنوف تتشمم فى كل أرجاء البيت، وتتوقف بهذا التشمم وتطيل التوقف فى أول الردهة بين غرفة الجلوس وحمام الضيوف الصغير.

- لعلها من هذا الحمام؟!

طُرح التساؤل وتكرر تقصيه بدقة دون أن يسفر عن شىء، فهذا الحمام مغلق لم يستخدم بعد وكل فتحاته وبالوعاته محكمة التغطية بل تلمع بنظافة أكيدة، ولا رائحة غير بقايا خفيفة لرائحة الطلاء الجديد التى لا تشبه أبدا رئحة التوتر تلك.

رائحة غريبة.. ليست كريهة ولا محببة ، لكنها تشعر بالضيق. "رائحة نيئة" وصل هو إلى هذا التحديد بينما توصلت

زوجته إلى أنها تشبه رائحة سلق البازلاء أو الحمص لكنها "باردة".

أوحى له تحديد زوجته لكنه الرائحة بتحديد رائحة أخرى تشبهها: رائحة سمك تم اصطياده حديثا لكن عقب اللحظة التى يكف فيها عن الحركة.

تحولت الرائحة إلى هاجس تناسته زوجته والأولاد، لكنه استمر ينغص عليه حتمية الابتهاج بالشقة الجديدة، صارت رائحة متجسدة يشعر بحدودها اللامرئية فى ذلك المكان من الردهة. وبدأ صدره يؤلمه لفرط ما يتعمق فى التشمم وهو يملأ رئتيه إلى حد الانتفاخ ويحبس هذا الانتفاخ طويلاً لعله يصل إلى تحديد أدق.

كانت الرائحة تختفى فجأة ثم تعاود الظهور دون مقدمات فى المكان نفسه، ثم اكتشف أنها تظهر فى أماكن أخرى من البيت، أخذ يتيقن أن لها شكلا وحدودا يستشعرها دون أن يراها أو يلمسها. غيمة أثيرية فى مساحة توازى ما ين منتصف بطنه وأعلى قليلا من قمة رأسه، كان يشمها وهو يثنى ركبتيه قليلا قليلا حتى تختفى، ويعود يشمها وهو يصعد من انثنائه، وظل يشمها بينما كان يشب قليلاِ قليلا على أصابع قدميه، لكنه لم يكن يشمها عندما يمعن فى الصعود على مقعد يعتليه فى مواجهة المكان الذى فيه توجد. إن لها كيانا يقارب طول جذعه ويماثل

عرض صدره على وجه التقريب، لكن هذه المساحة لم تكن تكف عن تغيير أبعادها مما يقطع بأنها تتماوج.

بدأ يفكر فى الأشباح ويؤرقه التفكير، لكن خاطرا ومضَ فى ذهنه وهو يعاود تلمس كنه الرائحة.. رائحة سمك كف للتو عن الحركة؟! رائحة بخار لحبوب تسلق؟! ووجدها: رائحة موتى حديثين أثناء التغسيل! نعم هى هذه، لقد حضر غُسل والده وكانت هناك هذه الرائحة المرتبطة فى ذهنه ببرودة حزينة. هل كانت من برودة الجو الشتوى الذى حدثت فيه الوفاة؟ أم كانت من صقيع الموت؟ رائحة باردة لكنها برودة ليست راسخة بل تشرع فى الرسوخ. ما علاقة هذه الرائحة برائحة الحبوب التى تسلق ورائحة السمك الذى كف من فوره عن الحركة؟ أليست جميعا متعلقة بمغادرة الحياة للجسد؟؟ جسد البشر الذى يبرد والسمك الذى يسكن والحبوب التى ينهى الغليان حياة البادرات الغافية فى قلوبها؟؟ ألا تكون رائحة أرواح تعرت للتو من أجسادها وهى تهيم قرب الأرض متقلة لا تزال برائحة الأجساد التى خلت من الحياة؟

تذكر تلك الرائحة يوم تغسيل والده، تذكر الجسد الشاحب الممعن فى الضمور والموغل فى التيبس، كان هو أباه ولم يكن كذلك، يمت إليه بصلة وينأى عنه بانقطاع. كان ينظر إلى وجهه المغمض ويناديه فى سره "يا أبى" ويود أن يتفطر بكاء، لكنه

يعجز عن البكاء، لم يستطع أن يبكى فى حضور الجثة وإن بكى فى غيابها، وبعد أن ربطوا طرفى الكفن سكبوا عطرا كثيرا على القماش لابد أنه غمر الجسد وفاح قويا فى المكان. كان عطرا دارجا من الزهور الطبيعية تغلب عليه رائحة الورد فى قوارير بلدية بسيطة. كان الغسل يجرى فى صالة البيت بعد إغلاق الأبواب على المغسلين والأبناء. ولولا العطر لمكثت الرائحة فى المكان، اختفت الرائحة تماما فهل تدثرت الروح بالعطر البسيط للورد والزهور الطبيعية وانطلقت فى رحاب الله بعيدا عن الجسد الفانى وأرض الأجساد المنذورة للفناء؟

لم يعد يشك كثيرا فى ذلك وهو يتعقب الرائحة فى مسكنه الجديد أو تتعقبه : لعلها رائحة روح عارية أو أرواح تبحث عما يسترها من أرواح الورود والزهور. لابد أن من سكنوا هذه الشقة قبله بخلوا على أحد أو بعض موتاهم بالعطر حين الغسل. ولعلها أرواح بائسة من بعيد جاءت تتوارى فى هذه الشقة التى ظلت خالية لفترة طويلة قبل أن يشتريها هو ويرممها ويسكنها مع أسرته. وها هى ماكثة. هذه الأرواح التى بات يشفق على غيمات رائحتها حتى أنه يهدهدها بالسلام كلما التقاها، لكن وجلا أخذ يداخله من وجود أرواح هائمة فى مسكنه وحول أطفاله فقرر أن يصرفها.. ما الذى يدثرها به مما يعرف من عطور؟ بل من

جواهر العطور التى يقال أنها أرواح كذلك؟

وجد نفسه مستدرجا للقراءة فى كتب "الأروما" القديمة والجديدة ويتعرف على أسرار خلاصات العطور وجواهرها، استغرق فى القراءة شهرين وعكف شهرين يحضر خلاصاته العطرية بأقل قدر من العنف مع مصادرها الطبيعية، بلا غلى ولا تقطير للأوراق والزهور والجذور وشذرات الصندل، وبلا سحق تحت أغطية الزيت المضغوطة بالأثقال.. فقط بتشرب رحيم لقطع الشاش المشبعة بزيت اللوز والمحفزات الطبيعية، تنام عليها بتلات الزهر والورد والأوراق وخشب البخور والصندل، فتمنحها من رحيق ذاتها طواعية وعن رضا، ثم تُنقى الخلاصات من فائض الزيت وتسكب فى القوارير الزجاجية الممعنة فى النظافة فتبدو سوائل بللورية ملونة.

حضّر خلاصات الميريمية المهدئة والمزيلة للكروب، والخزامى المنعشة، والنعنع البستانى المريح، وإكليل الجبل الذى تصفو به الخواطر، والصندل الذى يوسد الذكريات. استخلص جوهر الياسمين المؤلق، والزيزفون المهدئ والريحان المسامح، والورد ذا الفرحة الصافية.

تسع قوارير أحضر لها منضدة، صفها عليها فى ركن الردهة حيث كانت غيمة الروح الحائرة ترتعش، بين غرفة الجلوس

وحمام الضيوف الصغير.

حاولت زوجته أن تمس القوارير مستفسرة عما بها فأفزعها بصيحة تمنعها من مسها، وأجفل الأولاد ساحبين فضولهم أمام الصيحة التى نالتها أمهم، قال يخفف من استغرابها، إنها خلاصات عطور لتزيل الرائحة، وكرر القول على أطفاله. راح يسحب منضدة العطور بعيدا عن المكان يوما بعد يوم، وأقنع زوجته والأولاد أنه يسحب الرائحة ليخرجها من الشقة، ولم يحدثهم عن الأرواح الهائمة التى تبحث عن ثياب من العطر، خشى أن يرعبهم أو ألا يصدقوه، توجست زوجته من غرابة تصرفاته لكنها اكتفت بأن ترجوه الإسراع فى إخراج الرائحة من الشقة. كانت خلاصات العطور فواحة بقوة وتركيز راسخين، وبعد سبعة أيام كان عليه أن يقرر من أين سيكون إقلاع الروح أو الأرواح تلك بعد اكتمال دثارها العطرى.

لم يكن هناك مكان أفضل من جزء الشرفة الذى قفّلوه بالزجاج مقتطعا من الشرفة الشرقية الكبيرة الملحقة بغرفة المعيشة، سحب إليها منضدة القوارير التسع وفتح النافذة الصغيرة فى المكان وكانت فوهات القوارير مفتوحة.

- فعلا ذهبت الرائحة!
- لم تعد هنا!

لاحظت زوجته ذهاب الرائحة عن المكان الذى كانت تنبعث فيه وأكد الأولاد ذلك بدقة أنوفهم الصغيرة، لكنه كان يدرك أن المهمة لم تتم بعد. كانت تفاجئه فى أركان مختلفة من البيت غيمات خفيفة بأريج الورد وعطر الخزامى والصندل والريحان، كانت الروح أو الأرواح تجرب العطور وهى لا تعرف أى عطر تختار بعد هذا العرى الطويل فى عراء الشقة الخالية، وكان يحرص على ترك ممرات مفتوحة بين أركان البيت والشرفة المزججة حيث تنتظر قارورات العطور. وظل يحرص على ترك النافذة الصغيرة فى الشرفة مفتوحة دائما.

وشرع ذلك العرض المذهل يخلب لبه فى عمق الليل. سبع ليال متوالية اكتشف أولها مصادفة فطار النوم من عينيه، فما تكاد زوجته والأولاد يغفون حتى يتسلل فى أثير الظلمة إلى جزء الشرفة المقفل، ويمكث هناك دون أن يشعل الضوء دقائق حتى تطمئن نفسه وتألف وجوده الروح أو الأرواح فتكشف عن وجودها وهى تنهل من العطور لتكتسى، وتنبئ عن النهل تجيمان منمنمة كتكسرات بريق الماس إذ يتألق تحت الضوء بينما لا ضوء فى المكان.. نجيمات تشع بكل ألوان قوس قزح وهى تطفو شفافة داخل قوارير العطور وفوق فوهاتها ومن حولها.

فى كل نهار من أيام الشرفة ظل يلاحظ أن عطر الخزامى كان يفرغ أسرع من غيره، ولاحظ أن بقية العطور لم تكن تنقص فى قواريرها . رجح أن هذه الروح أو الأرواح كانت تفتقد السكينة وقليل الفرح، أخذ يزيد الخزامى ويضيف إلى قارورته أخريات، قارورة ثانية فثالثة فرابعة حتى صارت على الطاولة خمس قوارير لخلاصة عطر الخزامى، وامتلأت الشرفة بوميض فيروزى خافت بينما كانت النجيمات اللازوردية المنمنمة تتلامع بكثافة.

عند منتصف الليلة السابعة نشطت النجيمات فى التنقل من قارورة خزامى إلى أخرى حتى تألقت بنور ساطع عند القارورة الأخيرة. وفى وهلة خاطفة من الزمن التم الوميض الفيروزى حول تكاثف النجيمات اللازوردية محتويا إياها فى قلبة وحوم صاعدا، انسرب كل ذلك البهاء من النافذة الصغيرة واختفى. سادت ظلمة الليل حالكة مجوفة فأوشك على الإجهاش فى البكاء، ولم يواته النوم إلا فى نور الصبح.

مكث نائما النهار كله وعند الغروب استيقظ، رفع قوارير الخزامى عن المنضدة وكانت فارغة حتى الجفاف. اقترحت زوجته أن يترك المنضدة لوضع فرن الميكروويف عليها وإغلاق الشرفة مع ترك النافذة مفتوحة أثناء تشغيله حتى لا يتراكم

إشعاعه فى البيت ويضر الأولاد. وافق فى حزن عميق واجتهد فى إخفاء حزنه عن عينيها.

لا يعرف أحد أنه يتسلل بين الحين والحين إلى تلك الشرفة ليخبئ فيها قارورة عطر صغيرة مما يستطيع استخلاصه، يخفيها وراء ظهر الميكروويف ويتركها مفتوحة، لعل روحا هائمة من أرواح المغدورين الكثر فى هذا العالم تجئ.. وتنهل مما يتاح لها من أريج.

أعز ما تبقى من عمرى لك

كنت أنت صغيرا ومريضا. وكانت هى مريضة وإن لم تكن صغيرة مثلك . وكنت قد عدت لتوى من رحلة الصين حيث رأيتها هناك، لهذا ظلت صورتها وصورة والديها وصورة معلم "التشى قونغ" حاضرة داخلى بقوة بينما كنت أحملك معذبا فى تلك الساعة المتأخرة من الليل.

فى الساعة الثانية إلا ربعا بعد منتصف الليل، ولليوم الثالث على التوالى، أيقظنا بكاؤك.. بل أفزعنا بكاؤك. فقد كان بكاؤك من قبل، وأنت لم تتكلم بعد، مجرد نوع متدلل من النداء علينا لتلبية حاجة لك.. بسبب جوع، عطش، ابتلال، ابتراد، احترار. وفى أحيان كثيرة كان بكاؤك طلبا للمؤانسة عندما تفتح عينيك على الظلمة وتستوحش فتطلبنا حتى يعود إليك ملاك النوم. أما صرخات الثانية إلا ربعا بعد منتصف الليل هذه، فلم يكن بها أى نداء علينا، لم يكن بها إلا صوت الألم الذى ينفرد بك ويغلق عليك صدفته المعتمة فتصرخ يأسا دون أن تتمكن من رؤيتنا ونحن أنا وأمك نحيط بك، بل تتبادلك أحضاننا وأذرعنا ووجودنا كله. وجودنا كله كان يذوب ونحن لا نستطيع إسكات صوت ألمك. كنت أقلب فى فوران ذهنى المشتعل كل الاقتراحات الطبية لإيقاف

ألمك، دون أن أرسو على شاطئ صلب، فهذا الألم الغامض، وعدم قدرتك على البوح بكنهه ، وانتفاء ظهور علامات مصاحبة، ثم هذا التوقيت المتواتر الغريب. كل ذلك أودى بآخر ما تبقى فى ذهنى من خبرة طبيب سابق، وخلانى مجردا إلا من الشعور بالانسحاق.

كان يأس صراخك، والتياع أمك، ويأسى، وفيض حبنا لك، وتذكرتها.. بل تذكرت أبويها، ومعلم "التشى قونغ"، معاً.

فى شنغهاي كان المطر ينصب انصبابا وكأن صنابير السماء قد فتحت كلها فجأة بكامل طاقتها، وكان الانتقال من رصيف إلى رصيف يعنى الابتلال حتى العظام، بينما الشوارع المؤدية إلى المستشفى الكبير تعانى انسدادا يصعب اختراقه من تراكم أرتال السيارات المتلاصقة الزاحفة ببطء أقرب إلى التوقف، وأسراب الدراجات التى أسدل راكبوها (برانس) النايلون الملونة لتغطيهم وتوشك أن تغطى دراجاتهم حيث لا تظهر غير وجوههم، وكان موعدنا فى المستشفى يقترب بسرعة موترة، بينما المتاح لى لا يتجاوز خمس دقائق.. خمس دقائق طلبتها لمجرد الإطلال على الفتاة من وراء زجاج القسم الذى ترقد ويرقد فيه والداها، خمس دقائق للحملقة دون كلمة أو لفت انتباه أو تجاوز لحدود الوقوف صامتا وراء الزجاج، كان هذا كل ما أمكننى الحصول عليه.. ولم

أجد أمامى فى سباق الزمن الطائر فوق الرؤوس والعربات وتحت أمطار شنغهاى إلا أن أترجل من السيارة وأركض بين العربات والدراجات لألحق بالدقائق الخمس النادرة فى ذلك المستشفى.

لم يكن هذا موضوعى، بل كان الموضوع الذى أرسلتنى المجلة من أجله إلى الصين هو تغطية "التحولات الجديدة" بعد "الانفتاح الصيني". وفى خضم الملاحقة اللاهثة لآراء صناعيي شنغهاى، ولجنة تحديث الاقتصاد، وحركة التجارة الصاخبة فى شارع "نانجين"، والمدينة الصناعية الطالعة على الضفة الأخرى لنهر "هوانج بو" والقلب التجارى الجديد الطامح لأن يكون مركز ثقلٍ لرأس المال العالمى فى القرن القادم. ووسط ركضى فى خضم هذا التراكض الرقمى قاطعنى وجه الفتاة الأليف والناعم شأن وجوه الصبايا الصينيات اللائى اكتشفت خصوصية جمالهن فى هذه الرحلة. توقفت أمام الوجه والحكاية كأننى كنت مسروقا من نفسى وأعود إلى نفسى. توقفت أمام الوجه والحكاية اللذين استوقفانى على شاشات التليفزيون وعلى صفحات مجلات وجرائد عديدة. وانعطفت مربكا مضيفى من "الجريدة الاقتصادية" إذ طلبت منهم ترتيب لقاء مع الفتاة. أوقفت كل خطط التحقيق السابقة حتى يتحقق لى ذلك اللقاء. لكنهم، وبكل وسائلهم النافذة كجزء مرموق من السلطة، لم يظفروا لى إلا بخمس دقائق من خلف الزجاج، هذا

أقصى ما استطاعوا انتزاعه من مقاومة والدى الفتاة اللذين رأيتهما فأذهلنى أن يكون هذان الظلان الواهنان ممتلكين لهذه القدرة الهائلة ليرفضا مطلب سلطة عليا. لقد أرهقت الصحافة الفتاة فقررا أن يبعدا الصحافة عنها ومهما كان الثمن. كانا أبوين.

لقد كانت البنت على متن الطائرة المتجهة من شنغهاى إلى نيويورك، والرحلة من شنغهاى إلى نيويورك ليست مجرد خط جوى يحزم سماء نصف الكرة الأرضية. إنها طيران من دنيا إلى دنيا فى درب ملىء بمخاطر تفاوتات الضغط الجوى. فى لحظة يتبدد الانسياب الهادئ للطائرة الكبيرة ويخفق فؤادها من الرعب، تهبط وتصعد بين مهاو فاغرة وذرى سامقة من تيارات الهواء. وما بين هبوطٍ حادٍ مفاجئ وصعودٍ حادٍ مفاجئ لم تتمكن البنت العاملة ضمن طاقم المضيفات من ربط نفسها فى المقعد المخصص لها إلى جوار أحد أبواب الطوارئ. أفلت طرفا الحزام من بين يديها الرقيقتين المرتبكتين وطارت عن المقعد ليرتطم رأسها الجميل الهش بسقف الطائرة ثم هوت بعد أن أدارتها الارتطامة الأولى ليرتطم رأسها مرة ثانية وبأرض الطائرة هذه المرة. وكان الغياب، وكان الحضور.

عندما لا يكون للأبوين غير طفل وحيد، شانك معنا آنذاك، فإن نبض قلبيهما يترنم دون انقطاع بالاسم الذى يدللانه به.

يستحوذ وجوده على كيانيهما حتى آخر حدود الروح. وعندما يكون هذا الطفل بنتا يافعة جميلة وعذبة مثلها، فإن قلبى الأبوين يصيران قلبى عصفورين تتعلق نياطهما بحب عصفورة ثالثة وتسبق القلوب الروح. وبالانسحاق قلبيهما والروح عندما علما بان عصفورتهما الوحيدة غائبة عن الوعى تكابد سكرات الموت فى نيويورك النائية. باعا كل شىء وطارا إليها. لكنها لم تكن تراهما وهما يبكيان عند قدميها الصغيرتين. لم تقدر تكنولوجيا نيويورك الطبية العالية على إثبات تفوقها فى مواجهة ثلاثة عصافير صينية مترابطة القلوب بخيوط من حرير إنسانى شرقى شفيف. وعاد الأبوان بابنتهما إلى شنغهاى.. إلى عنبر المستشفى الذى وقفت أنا خارج حاجزه الزجاجى أتأمل المعجزة.

"لقد منحاها سنين كثيرة مما تبقى لهما من العمر" كان أستاذ "التشى قونغ" يشير إلى الأبوين الناعسين فى سريرين على جانبى سريرها وهى جالسة تشرب بمساعدة الممرضة كوبا من عصير البرتقال وتتلفت حولها متأملة نور الدنيا التى عادت إليها بعد غياب طويل. بعد عجز "المونيتورات" الأمريكية وأجهزة التشخيص بالكمبيوتر، ومناظير الفيديو ومشارط الليزر، وبرامج جراحات المخ الدقيقة. كان وجها أبويها يبدوان كوجهين لطاعنين فى السن لا يتناسبان مع وجهى أبوين لفتاة صغيرة فى بلد يتزوج

أبناؤه فى عمر الصبا.

أمعنت لأتيقين من سطوة الغضون فى وجهيهما ونفور العروق الخضر تحت الجلد الشاحب الرقيق عند الأيادى وعلى الجبين. "لقد كبرا فى عدة أيام ثلاثة عقود أو أربعة" علق معلم "التشى قونغ" على نظراتى التى كنت أسددها إلى ملامح وأيادى الأبوين الذاهبين فى رضا النعاس العميق. أيقنت أننى لن أكتب عن هذا للصحافة السيارة أبدا، فلقد بدا الأمر يخصنى.. يخص منطقة عميقة جدا فى نفسى. لكننى لم أكن أتصور أن يستيقظ هذا كله عندما أيقظنا بكاؤك فى عمق الليل، بكاء ألمك الغامض الذى سلبك الحبور الجميل والحركة الدائبة اللطيفة التى تعودناها منك. استأثرتُ بك على كتفى ولصق قلبى دونما جدوى. تلك الأشربة المهدئة والمسكنة بدت لا طائل منها. ضمتى لك ورواحى ومجيئى كان سدى. أنت طفلى وأنا أبوك. لا لست مجرد قطعة من أمك ومنى إنك قطعة تذيب قلبى رحمة. كنا معا فى ذلك الليل بعيدين عن سماء شنغهاى الماطرة وتحت سماء عربية جافة، تبدو بعيدة ونجومها رفيعة وغائرة فى الظلمة. وأدركت فى إشراقة مفاجئة إذ تذكرت الفتاة وأبويها ومعلم "التشى قونغ" أننى أضمك لكنك ناءٍ عنى وأنا معزول عنك. كل منا عضوية مغلقة على ذاتها.. على طاقة الحياة فيها، "تشى"، وعندما تنجرح العضوية ويبدو التئام

جرحها عسيراً لماذا لا نلجأ إلى طاقة الحياة تلك.. الجوهر الذى يعيش فينا متزودا بأنفاس الهواء واللقيمات التى نزدرد وجرعات الماء التى نشرب. تواصل "التشى" حياتها وتدور مشعة بروح الحياة فى خلايانا، لتستمر عضويتنا نضرة وحية. لم تدرك تقنيات نيويورك الطبية الإلكترونية العالية ذلك. بل لم تصدقه. حتى الأبوين الصينيين لم يكونا ليصدقا ذلك. وأمام الغياب الطويل لابد من حضور المستحيل أو ما كان يبدو مستحيلا. معلم "التشى قونغ" درب الأبوين كيف يضبطان إيقاع عضويتهما مع إيقاع جوهر الحياة. كيف يتنفسان براحة ويغمضان بتركيز ليريا دوران ذلك الجوهر بعين البصيرة لا البصر. وبدون لمس، بطاقة الحب القصوى لذات محبوبة أعز عليهما من ذاتيهما، وفى لحظة الرؤية العليا راحا يدفعان بنبضات الجوهر المشع إلى عضوية الذات المحبوبة. زادُ أيامٍ يمنح أياماً بل زاد سنين ينقذ سنين أخرى. يهن المانح ويقوى الممنوح. كانا يهنان بالتأكيد وهى تقوى على فتح عينيها بعد إغماض طويل. وكنت أشعر بالوهن أيضا وأنا أدفع بذلك الجوهر النابض تجاهك وأنت فى حضنى. راحت تتحرك بعد موات طويل وراحا يتهاويان من شدة الضعف . وكنت أشعر بأن قدمى تخذلانى وأنت تسكت فجأة فى حضنى . "تشى" جوهر الحياة فى جسدى يسعى إليك نابضا مشعا. أدفعه فرحا

بسكوت ألمك. ثم تهزج ضاحكا ضحكتك المكركرة تلك فيما أحاول الإقعاء متهاويا ببطء نحو الأرض. تصرخ أمك منادية إياى، فأومئ لها أن تلتقطك من بين ذراعى لأتهاوى وأهمس من قاع وهنى لأطمئنها أننى بخير. إننى بخير.. وكانت فى هلعها علىّ قد تركتك تحبو.. تعاود حبوك الحر من كل ألم وأنا أرقبك من مهواى على الأرض باسما فتطمئنها ابتسامتى.

اسرع.. أسرع فى حبوك الجميل با بنى.. واضحك طالبا الملاعبة وانهض لتجرب خطوك الصغير متساندا على قطع الأثاث والحيطان .. اسرع قالتها عيناى بينما كنت أتنفس طالبا مددا لجوهر الحياة داخلى، "تشى" التى نقلت إليك شيئا منها ليكف ألمك. لا أقوى على النهوض فورا ولا أريد النهوض فورا. وكنت أود وأنا أرقبك من مرقدى المؤقت أن أوصيك ولا أزال: يا بنى.. الآباء لا يفكرون فيما يمنحون من ذواتهم للأبناء، لأنها غريزة ذلك الحب الذى ليس مثله فى دنيا البشر حب. وهناك أشياء كثيرة فى الحياة تمنحنا من ذاتها دونما تفكير أيضا. تهبنا من أعمارها لنكمل أعمارنا. السحب والأرض والشجر والحيوان والطير والأنهار والبحار والشمس. فلتمنحها حبك ولا تجحد عواطفها، فهى عواطف عالية وإن تكن بكماء يا حبيب قلبى.

المختفى مرتين

قبل أن أقع على الدليل الذى يرجح حدوث الأعجوبة بعدة أشهر كنت مُهيئاً لافتراضها وتقبلها ، حتى أننى صرخت عندما قرأت نبأ اختفاء الرجل: "عملها"!

نشرت إحدى الصحف الصباحية يوم الجمعة ٦ يناير ١٩٩٥، نبأ اختفاء الدكتور نادر إبراهيم البدراوى من منزله الكائن فى شارع ١٥ بضاحية المعادى بجنوب القاهرة. ولم يكن النبأ طازجاً إذ أن الاختفاء حدث منذ عشرة أشهر لكن لسبب ما رؤى تأجيل إعلان النبأ، ربما للتيقن من واقعية الاختفاء واستبعاد أية شبهات جنائية أو اجتماعية أو نفسية وراء ذلك. وهذا ما كنت سأجزم به لو أننى عرفت عن الاختفاء حين وقوعه.

الرجل الذى اختفى كان فى الخامسة والستين، ميسوراً، متزوج من السيدة أسماء غنيم مديرة أحد فروع البنوك الاستثمارية بالقاهرة والتى تشى ملامحها رغم اقترابها من سن المعاش برصيد جمال يقاوم الزوال. له ابنتان، كبراهما "مها" فى الثامنة والعشرين طبيبة متزوجة من زميل لها ولديهما طفل وحيد عمره خمس سنوات يحمل اسم جده الذى كان مولعاً به، والصغرى "مروة" فى الثالثة والعشرين خريجة الجامعة الأمريكية

وتعمل بقسم النشر بالجامعة ذاتها وكانت حبة عين أبيها يدللها كثيرا وتدلله وهى تعيش فى بيت أبويها.

حياة الرجل كانت دافئة وميسورة، وليس ثمة ما يدعو، فى الظاهر على الأقل، إلى أى نوع من الهروب من هذه الحياة، ومن هذه الفيللا الغارقة وسط خضرة أشجار ونباتات الحديقة المحيطة بها. ثلاثة طوابق ، الأعلى حجرتان مليئتان بالكتب ، وحمام صغير، ويتم الوصول إلى هذا الطابق عبر سلم داخلى من الطابق الثانى. وفى إحدى الحجرتين حدث الاختفاء اللغز للرجل، إذ كان الباب مغلقاً من الداخل والنافذة كذلك. وعندما قام "أبو حسين" البواب بكسر باب الغرفة إذعانا لأمر السيدة أسماء وابنتها مروة اللتين كانتا فى توتر شديد وذعر، لم يكن فى الغرفة أحد ولم يكن هناك من شىء غير الكتب على الأرفف وبقية فنجال من شاى الأعشاب التى كان يفضلها المختفى ويختار خليطها بنفسه. وكان المكان يعبق برائحة بخور هادئ احترق فى مجمرة نحاسية صغيرة اشتراها الدكتور فى إحدى زياراته إلى الهند التى غاص خلالها فى عالم الراجا يوجا وتتلمذ على يد باتانجالى نفسه فى مشرا، حتى أصبح أستاذاً فى تقنية السكينة الداخلية ضمن طقوس التأمل الباطنى.

أسئلة حائرة ترقرقت فى العيون بعد كسر باب الحجرة المغلقة من الداخل: هل تبخر الرجل؟ أم أنه راح ضحية جريمة مدبرة بعناية؟ لم يثبت ذلك أبداً فى الشهور العشرة التى تلت ذلك. وأقفل محضر البلاغ بقسم شرطة المعادى. حتى علامة الاستفهام الصغيرة التى تعلقت بضباب حادثة الاختفاء تمت الإجابة عليها بما أبقى الحادثة كلها فى كنف علامة استفهام شاملة كبيرة . فثمة صورة عثر عليها إلى جوار فنجان الشاى ومجمرة البخور. صورة للدكتور نادر فى شبابه مع حبيبة قديمة تبين أنها السيدة نهال الميرغنى التى تزوجت بعد فشل قصة حبها مع زميل دراستها بكلية العلوم آنذاك نادر البدراوى . وسافرت مع زوجها المهندس المعمارى فاروق برهام إلى استراليا حيث استقرا هناك واستوطنا منذ أربعين عاماً. ولقد وصلت تحريات البوليس المصرى إلى هناك عبر الانتربول واستبعد أى ظل لهذه القصة القديمة مع حادث اختفاء الدكتور البدراوى الذى ثبت أنه لم يدخل الأراضى الاسترالية أبداً.

الأمر الذى أذهلنى، رغم أننى سعيت إلى الكشف عنه إذ كنت أهجس بالاحتمال الخارق لحدوثه، هو وفاة نادر البدراوى بتاريخ ١٩٨٢/٥/٢٢. ومن المؤكد أن الظن بوجود خطأ فى إيراد التواريخ سيكون هو الغالب. لكننى أوقن أن الأمر لا خطأ فيه،

فمن اختفى عام ١٩٩٥ هو نفسه من مات عام ١٩٨٢. أوقن فى ذلك بقوة الحدس التى تركها داخلى الدكتور نادر البدراوى أستاذ الفيزياء النظرية بكلية العلوم يوم كنت طالباً بها أدمن محاضراته. ثم معيداً أعد رسالتى تحت إشرافه. ورغم أننى تركت دراسة الفيزياء وتدريسها واتجهت إلى الكتابة الأدبية والعمل الصحفى إلا أن الرجل ظل داخلى بثنائيته غريبة التوحد تلك. حيث علمية الفيزياء تختلط بعجائبية ما وراء المادة وتفضى كل منهما إلى الأخرى. لقد اختار بنفسه موضوع رسالتى للدكتوراه تحت إشرافه وكان عنوانها : "التقييم الرياضى والفيزيائى لمحاولات حل معضلات اينشتين فى عبور حاجز الضوء لإعادة الزمن إلى الوراء".

لقد اختار يومها أن يشركنى لا فى بحث علمى بل فى هاجس عميق يستبد بدواخله . ورغم أن الموضوع بات مادة تندر فى أوساط طلاب وأساتذة الدراسات العليا يومها إلا أن أحداً لم يجرؤ على الوصول بالتندر إلى مرحلة السخرية. فالدكتور نادر البدراوى عالم الفيزياء النظرية الفذ على المستويين المحلى والعالمى لم يكن قابلاً للسخرية أما أنا فقد راق لى الموضوع لحد الافتتان. إذ داعب الجانب الخيالى فى داخلى والذى أخرجنى فيما بعد من حقل الفيزياء إلى دنيا الأدب.

أتذكر أول جلسة مناقشة معه قبل الشروع فى البحث. حلق بى فى أجواء كونية وعوالم متداخلة بدلاً من أن يغوص بى فى أرض الفيزياء المسطحة. كان مفتونا بنظرية الكم ونسبيتى إنيشتين العامة والخاصة. ولديه يقين فى أن الزمن بعد رابع قابل للتحرك به أو عليه ذهابا وأياباً شأن الأبعاد الثلاثة الأخرى التى نألفها فى وجودنا المعتاد: الطول والعرض والارتفاع. ولطالما كان يردد عن اينشتين قوله: "الناس الذين على شاكلتنا ممن يؤمنون بالفيزياء، يدركون أن الحواجز بين الأزمنة، الماضى والحاضر والمستقبل، ما هى إلا مجرد أوهام، وإن بدت مستعصية". يوم قررت فجأة أن اهجر الفيزياء إلى الأدب، فيما كنت أوشك على مناقشة رسالة الدكتواره، فاجأنى باستحسانه لاختيارى، ودعانى لجلسة مودة صافية قال فيها الكثير. وتكررت هذه الجلسات مرات عديدة. حكى عن نفسه وعن توق الإنسان الدائم لاستعادة الزمن المفقود. قال إن الأدب يحقق ذلك على مستوى المتخيل والفيزياء الحديثة ترنو إلى ذلك على مستوى المتعين . وأسرّ لى بأنه يعتقد أن معضلات الفيزياء الكبرى لن تحل إلا من خارج الفيزياء. وتحدث بتوقير عن عوالم الباراسيكولوجى كأمل مستقبلى إن عولجت برصانة. السيكوكينزيا حيث يجترح الفكر معجزة التأثير الخارق فى المادة. والتخاطر الذى يخلق عوالم اتصالية تتضاءل

إلى جوارها الاتصالات الفضائية. وقال مما لابد أن أذكره هنا أن اختراق حاجز الضوء، أى الانطلاق بسرعة تفوق سرعة الضوء، لإبطاء الزمن وإيقافه ثم إعادته إلى الوراء لن يتم بحلول فيزيائية بل بحلول روحية واختراقات فوق حسية. ولقد أفلتت منه بضع عبارات شاردة عن حب قديم ضائع وردد مرة أو مرتين اسم نهال الميرغنى بشرود وتبتل.

لغز اختفاء الدكتور البدراوى من معتكفة المغلق، نفسه ، لم أرله حلاً إلا خارج كل ما هو فيزيقى متفق عليه. لهذا مكثت طويلاً .ولعدة شهور أكثف تطوير ما فوق الحواس لدى، وفى إطار التأمل الباطنى لليوجا – ريجا ذاتها التى شغف بها الدكتور البدراوى . وشيئاً فشيئاً بدأت أرى سكينتى الداخلية وكأنها بحيرة صافية هادئة، وعلى مرآة صفحة هذه البحيرة راحت تطفو مشاهد قادتنى فى النهاية إلى التنقيب فى أضابير المحفوظات الخاصة بحالات الوفاة فى مستشفى العباسية، وها أنذا أستعيد هذه المشاهد..

الدكتور نادر إبراهيم البدراوى بكل أشواق الكيان الواقف بشيخوخته على عتبة الموت، نادى الحياة فى ذروة تجلياتها، فى زمن الشباب الوهاج وأيام الحب الأول. أغلق كل منافذ الحجرة واحتسى شاى الأعشاب المطهرة وأطلق عبق البخور الشرقى ثم

راح يغلق كل حواسه الدارجة فى وجه العالم خارج جسده. وفى سكينة الداخل راحت حواس أخرى فوق دارج الحواس تنطلق فى عوالم ما فوق الطبيعة الدارجة وما وراءها. بل الطبيعة التى لا يعرفها إلا متصوفو ميكانيكا الكم حيث الوجود تموجات من كمات تتقارب وتتباعد، والزمان كالمكان قابل لتنقل الموجودات خلاله. فليتحرك بطاقة الروح اللامحدودة ذلك الجسد المحدود. وبسرعة تفوق سرعة الضوء انطلق كيان الدكتور نادر البدراوى فتراجع الزمان مع انطلاقه حتى استقر به عند الزمن المرتجى. زمن تلك الصورة التى عاشت أربعة عقود لم يعرف بها أقرب المقربين إليه. زمن الحب الأول..

عاد إلى ذلك الزمن البعيد الحبيب وهو يكشف كل ماتلا ذلك من أزمنة. ومن يمتلك خريطة لوقائع الزمان الآتى يعرف كيف يتفادى فخاخ العمر. كان ثمة طيش فى خصام المحبين تجاوزه. وكان ثمة عوز انتصر عليه بكشف كنوز قبل أوان اكتشافها الذى عاصره أو سمع عنه فى حياته التى عاد منها. صار نادر البدراوى زوجاً لمحبوبته الأولى نهال الميرغنى. لكن ظلال حياته المتقدمة مع زوجته أسماء غنيم وابنتيه وحفيده كانت تناديه بأشواق إليفة. مضه الشوق خاصة إلى ابنته الصغرى. وكانت بوارق الأشواق تتناثر منه ذلات لسان، فينادى: "مرمر" "أسماء"

"نها" . واستحالت البوارق إلى شرارات أمسكت بتلابيب اللحظة فبدأ بيت الحب الأول يحترق. وفى رماد الحريق كان جمر الرغبة فى العودة إلى بيت المعادى يتوقد فى الأعماق . لكن هيهات!

الرجل الذى رجع عن زمنه إلى زمن مضى بيقين معادلات ميكانيكا الكم والقوى الخارقة لطاقة الروح أراد أن يعود من حيث أتى. صفّى حسابات الماضى مع الماضى فانفصل بعد سنة أو سنتين من زواج لم يثمر أطفالاً مع نهال الميرغنى التى سرعان ما تزوجت آخر وسافرت معه. وراح نادر البدراوى ينادى طاقة روحه ويقينه الفيزيائى الكمومى ليخترق حاجز الضوء فى الاتجاه المعاكس نحو الفيللا الغارقة وسط الخضرة بشارع ١٥ فى ضاحية المعادى. لكن الروح ضعضعها تذبذب الأزمنة وحسرات الاستعادة ولوعة افتقاد المألوف. وما بين زمن وزمن حملت الروح المتعبة الكيان الحائر لتحل عليه لعنة الضياع بين الأزمنة. لم يتمكن نادر البدراوى من السفر فى الزمان حتى غايته فسقط بكيانه فى دائرة العام ١٩٧٦. سقط عاريا من أى تراكم سابق يستره. وأدرك أنه وقع فى مصيدة الزمان ففقد عقله.

ارتعشت مرآة سطح بحيرة السكينة داخلى، وتكسرت الصور مشوشة، فرأيت الدكتور نادر البدراوى فى هياج المجانين يقاد إلى مصحة عتيقة تختفى أسوارها القديمة بين سياج من الكافور

والجزوارينا المغبرة. إنها مستشفى العباسية التى ذهبت أبحث عن الرجل فيها فقادنى إصرارى على البحث من قسم إلى قسم دون جدوى حتى استقربى الأمر عند سجل الوفيات القديم، الدفتر رقم ٨٢م صفحة ١١٤. وقرأت بذهول وألم: اسم المتوفى: نادر إبراهيم البدراوى معيد فيزياء بجامعة القاهرة تاريخ دخول المستشفى ١٩٧٦/١٢/٥ تاريخ الوفاة ١٩٨٢/٥/٢٢ سبب الوفاة: جفاف حاد نتيجة الامتناع التام عن الطعام والشراب كجزء من أعراض اكتئابية شديدة ضمن الإصابة بفصام مقاوم للعلاج.

رنيـن أوتـار الـماء

ستكون معجزة صغيرة لو وصلت إليك رسالتى هذه التى أكتبها فى نهار مختلس من أيام جولتك معى فى الغابة. تصنعت المرض لأخذ يوم للراحة أكتب فيه. وسأمضى معك حتى ضفة الميكونج لأدس رسالتى فى حقيبة رحلاتك كثيرة الجيوب بينما الزورق يقلع وأعود أنا. واضح أنك نسيتنى تماما، ربما لأن ملامحى تغيرت كثيرا وتغيرت هيئتى التِى رأيتنى بها منذ خمسة عشر عاما، لكننى تعرفت عليك منذ اللحظة الأولى. كبحت صرخة الدهشة بصعوبة وعانيت كثيراً حتى لا تفلت منى كلمة بالعربية. أتذكرك وأنت تعمل طبيبا فى قسم الأمراض النفسية والعصبية بمستشفى المنصورة العام . وعندما أذكرك بنفسى ستستغرب وجودى فى هذا المكان القصى من العالم. لكننى سأشرح لك. أما أنا فساظل على استغرابى لمجيئك إلى هذا المكان. والأغرب أنك لا تعمل الآن بالطب النفسى على ما يبدو، انت تتحرك بصحبة مصور تقترح عليه اللقطات وتدون ملاحظات موجزة فى مفكرة صغيرة، هذا عمل الصحفيين على الأغلب فما علاقة الطب النفسى بالصحافة. وفى هذا المكان المجهول من جنوب غرب كمبوديا الذى لا يعرفه كثيرون من أهل البلاد

أنفسهم. لعلك صرت صحفيا، إنها نقلة غريبة لكنك كنت طبيبا نفسيا غريبا أيضا، أعنى أنك لم تكن تتصرف بسمت الأطباء النفسيين العاديين. أتذكر أنك كنت تُخرج المرضى فى ظلّ شجرة سنط عجوز وارفة بالفناء الخلفى، ذلك المكان المعزول بين العيادة الخارجية وعنابر الجراحة، أتذكر الزهور البرتقالية المنمنمة لتلك الشجرة كأننى أراها الآن، كنت أفكر فى هذه الزهور كشموس صغيرة. اتذكر أنك أشرت إليها عندما لمحتنى أتاملها وقلت لى إنها زهور الفتنة . مهدئة ومدوخة وسامة أيضا. كنت تضحك طوال الوقت وتعمل كأنك تلتقى بمعارف وأصدقاء فى مقهى مألوف. كنت تبدو صغيرا فى السن ولعلك لهذا كنت ترتدى معطف الأطباء الأبيض دائما على غير عادة زملائك. عندما سألتك فى إحدى المرات التى ترددت عليك فيها عن سر ارتدائك للمعطف الأبيض قلت ضاحكا: حتى يتذكر المرضى أننى طبيب، فأنا أخاف أن يحسبنى أحدهم ولدا متطفلا ويضربنى. وقلت بضحك وأسى: لعله حصن من قماش أبيض احتمى داخله من نفثات العدوى بالجنون. أتذكرك بشدة. فأنت طبيب من اثنين من بين عشرات الأطباء الذين عرضت عليهم حالتى ووضعتما احتمالا مختلفا لتفسير الأعراض التى كنت أنا نفسى أظنها "بوادر جنون". لو ذكرتك بنفسى ربما تتذكر. تلك "الحالة" التى جعلتك

تندهش كثيراً وتنهض مأخوذا وتطلب بالإنجليزية من زميل لك لعل اسمه أحمد أو حمدى أن يأخذ بقية المرضى حتى تتفرغ لمعايشة "حالة مدهشة". قلت "حالة مدهشة" بحماس جعل زميلك الذى يبدو أنه كان صديقك أيضا يبتسم مستسلما ويشير إلى بقية مرضاك حتى يتحولوا إليه. كنت أنا محالاً إليكم من القومسيون الطبى بتشخيص "فصام". وعندما سمعت شكواى وجدتك تفتح عينيك بدهشة وتعود بمقعدك إلى الوراء ثم تنهض لتطلب من زميلك أن يأخذ بقية المرضى لتتفرغ لحالتى. لعلك تتذكر هذه الحالة. حالة الرجل الذى صار لا يستحم ولا يغتسل ويمتنع عن الطعام اكتئابا عندما تمطر، الرجل الذى اعتاد مع انطلاق الماء من صنبور أو دوش أن يسمع بكاء أطفال وعويل نسوة وانتحاب رجال وأصواتا مبهمة صارخة ودبيب أقدام تجرى وانفاسا مرعوبة تتلاحق، كلهم شخصوا حالتى ضمن دائرة الفصام. قالوا عن الأعراض إنها هلاوس سمعية. أنت وطبيب آخر من النمسا – فقد ذهبت بحالتى إلى أربعة أطراف الأرض من احتملتما أن تكون الحالة نوعا من الاستقبال الفائق. أو الخارق. أو ما فوق الحسى. وقد سألتنى أنت مرة السؤال الذى لم يوجهه إلى طبيب آخر : "وماذا تظن حالتك؟ كيف يمكن أن تفسرها؟". يومها لم يكن لدى تفسير. لكننى كنت موقنا أنها ليست هلاوس. إنها أصوات

حقيقية أسمعها وإن لم انجح فى تحديد مصدرها آنذاك. اللجنة العليا للقومسيون الطبى شخصت حالتى على أنها فصام متقدم. وحقيقة كنت قد وصلت إلى درجة من التدهور توحى بأن هذا التشخيص صحيح. أهملت نظافتى تماما وصارت ملابسى رثة. فإذا كنت لا أجرؤ على الاغتسال وتتراكم على جسمى القذارة لماذا أغير ملابسى ولماذا أحلق شعرى أو ذقنى أو شاربى ولماذا أقص أظافرى. طبعا لم اتزوج وكيف كنت أجرؤ على التفكير فى ذلك وحالتى كانت كما كانت. أحالونى إلى التقاعد المرضى مبكراً بتطبيق المادة الرابعة من قانون الأمراض العقلية. كان ذلك بمثابة حكم بالإعدام الاجتماعى علىّ . لكنه كان بابا مفتوحا لأبدأ خروجى قليلا من غموض الحالة. التقاعد وفّر لى ما يكفينى لأعيش دون أن أتجشم عناء الذهاب إلى العمل ومعاناة تبعاته. كنت مهندساً فى محطة كهرباء طلخا. كان عملا دقيقا أتحمل فى بعض مناوباته مسئولية إنارة مئات الآلاف من البيوت والمصانع والورش فى مدينة المنصورة وما حولها. وأتحمل بالطبع تبعات انقطاع التيار ولو ثانية فى هذا المحيط الهائل لحياة بضعة ملايين من البشر. استرحت.

... ...

صار اليوم ممتداً أمامى بلا نهاية كانت نظرات الناس

المشفقة والمتسائلة تدفعنى للبقاء أكثر فى البيت. لم أكن أخرج إلا لشراء احتياجاتى من بقايا المحال الساهرة عند منتصف الليل. وبين جدران البيت بدأت رحلة الإجابة عن السؤال الذى رشقتنى به: وماذا تظن حالتك؟ كيف يمكن أن تفسرها؟ إننى مهندس كهرباء وكنت مولعاً دائماً بالفيزياء. هجست أن أجد تفسيرا لحالتى فى مراجع الفيزياء الحديثة التى وجدت شيئا منها فى مكتبة كلية هندسة المنصورة التى تخرجت فيها. تلك كانت الحالة الوحيدة التى أغير فيها ملابسى لأبدو مقبولا وغير شاذ المظهر وأنا ذاهب إلى مكتبة الكلية. لكننى لم استحم ولم أغتسل. كنت استعيض عن ذلك بمسح جسدى بكولونيا الثلاث خمسات. كانت عطورها القوية تكاد تخنقنى أنا نفسى. لكنها كانت كافية لإقناعى بأن رائحتى غير منفرة. ولم أجد فى مراجع الفيزياء الحديثة طرف خيط يوصلنى إلى شىء. كدت أيأس واستسلم لفكرة أننى مجنون وإن ما أسمعه مجرد هلاوس لا وجود لها فى الواقع. لكن خاطرا عابراً أضاءنى فجأة. وأحسست أننى أعثر على تفسير لم يقل به أحد وينبع من قوانين الفيزياء البسيطة التى كنا نتعلمها فى المدرسة الثانوية. أنت تعرف أن الصوت موجات من تضاغط وخلخة فى الهواء. وتراكيب تنطلق من حولنا ولا تختفى أو تتبدد كما يظن معظم الناس. إنها طاقة، تبقى وتتخذ لها مكامن تتناسب مع قوتها

وحيزها المضغوط، تنغرس فى مسام الخشب. فى شقوق الحيطان. فى الفجوات حيثما كانت. ولا تنطلق إلا بجذبها جذباً من جديد. وهنا لب مسألتى. فالماء عندما يخرج مضغوطا بقوة من ثقوب الدوش الرفيعة أو من مصفاة صنبور الحوض أو بجذب كتلة الأرض لزخات المطر. الماء فى هذه الحالات يغدو كأوتار مشدودة قابلة للاهتزاز بأصغر نسمة هواء وبأوهى نفس. وكما فى الصندوق الرنان يهتز وتر من أوتاره دون لمس عندما نطرق شوكة رنانة، ونقيمها على خشب هذا الصندوق، يهتز الوتر بالذبذبة نفسها التى تهتز بها الشوكة الرنانة. هكذا يستدعى اهتزاز أوتار الماء الأصوات المختبئة ويخرجها من مكامنها . كل ذبذبة تستدعى ما يماثلها، تهتز أوتار مياه المطر والصنبور والدوش فتستدعى بذبذباتها أصوات الصراخ والبكاء والعويل والنحيب والفزع. يستقبلها سمعى دون بقية خلق الله لخلل أو ميزة فى هذا السمع. تحسنت بعض الشىء بعد وصولى إلى هذه النتيجة. أعتنيت بنفسى وطرقت باب أفضل أطباء الأذن. لكن أحداً منهم لم يعثر على شىء مختلف ليعالجه. عاودنى اليأس واستبد بى السؤال المحير.. لماذا تحت مياه الدوش أو أمام مياه صنبور أو عند المطر لم أكن أسمع غير أصوات الصراخ والعويل والنحيب. أصوات رعبى من الماء؟ لم أستطع الإجابة عن هذا السؤال حتى

الآن. فكرت أن المكان ربما لم تكن به غير مكامن لأصوات الحزن والألم. وربما لم تكن هناك أصلا أصوات للفرح. أو أن أصوات الفرح أضعف من أن تنغرس فى هذه المكامن الدقيقة. أخذت انتقل من مكان إلى مكان بحثا عن مقام لا تستدعى فيه أوتار الماء أصواتا تفزعنى. تركت بيت المنصورة إلى بيت قديم كان لنا فى الريف عند شربين. ثم انتقلت من الدقهلية كلها إلى الإسكندرية، ثم بعت معظم ماورثته عن أبوىّ اللذين كنت وحيدهما وغادرت مصر. غَربت فى بلاد العرب حتى طنجة. وشرّقت حتى صلالة. مررت بدمشق وبيروت وبغداد فلم أمكث طويلاً. أخذت الشمال الغربى من نيويورك حتى جدانسك. وفى آسيا بدأت من إزمير حتى مانيلا. ثم جذبنى جنوب شرق أسيا ووجدت نفسى أخيرا فى كمبوديا. مشيت مع فلول الخمير الحمر ممسوساً بدعوتهم إلى ترييف المدن والخلاص من ربقة الأمبريالية بعودة المجتمع كله إلى الزراعة . كانت القصيدة عذبة الخيال لكن الشاعر كان جلفاً بالغ الفظاظة.

لم يكن مطلوبا منى أن استحم أو اغتسل فى حومة الترييف وتقديس لون الطين. وعندما ازداد الضغط على الخمير الحمر تبخر الشعر وبقى الابتذال. تحركت فلول الخمير الحمر نحو الغرب فى ظلال التايلانديين. يتيحون لهم نزح ثروات كمبوديا من

شجر البخور ومناجم الياقوت مقابل الحماية. تحالف الماويون مع وكلاء البانكى وهربت أنا بطينى نحو الجنوب. عبرت قوس جبال الفيلة الخضراء وتلال الكردمون العطرة فوجدت نفسى أوغل فى الغابة العذراء. انمحى الشمال بكل صراعاته ومخاتلاته وفتح لى الجنوب الغربى أحضانه البكر المنسية. عالم خارج عالمنا تعزله سلسلة الجبال فى الشمال وتحرسه سبخات المانجروف العصية على الاختراق بامتداد الساحل المطل على خليج تايلاند. غابات مطيرة لا تسكنها إلا النباتات الكثيفة والحيوانات والطيور الطليقة وبقايا قبائل بدائية معزولة ومتناثرة. بشر يعيشون على الفطرة فى سلام الغابة. عراة لا يسترون إلا عوراتهم بشىء من نسيج أغصان المتسلقات. يحيون على جمع الثمار البرية وصيد السمك من الجداول الشفافة فى وهاد الخضرة. ويشعلون النار للشواء بضرب حجرين معا وسط القش والحطب. ليسوا همجيين بل يعيشون فى أسر صغيرة متماسكة ومتحابة وقد اتخذت صبية من بناتهم زوجة لى . إنهم الآن أهلى واتكلم لغتهم.

... ...

لن أبوح بأسرارهم أو أدل أحداً عليهم لتبقى هذه البكارة فى العالم. حتى أنت وبرغم المفاجأة مذهلة الفرح بلقائك غير المتخيل بعد كل هذه السنين وفى ذلك المكان خارج العالم لم أدلك عليهم.

فعلت معك كما فعلت وسأفعل مع السواح الذين بدأ القليل منهم يصل إلى أطراف المكان. مجرد تجوال على حافة الغابة العذراء دون الإيغال فى تلافيفها السرية. وتحذير منذر من خطورة أى إيغال. هذه الغابة قادرة على ابتلاع من لا يكون مخلصاً وحقيقياً فى اللجوء إليها والاستغاثة ببكارتها. أنا كنت مخلصاً وحقيقياً فى ارتمائى باكيا داخل أحضانها الخضراء العذراء. ودعت عمراً من عذاب الصراخ والبكاء والعويل وفزع الانفاس وفرار الخطى المذعورة فى أذنّى كلما اهتزت أوتار الماء. الآن لا يفزعنى الماء هنا إلا أقل القليل. صرت اغتسل بشوق روحى الطويل إلى الماء وعطش جسدى الحارق الذى طال أكثر من خمسة عشر عاما من الصدى. لابد أننى أخبرتك أثناء جولتنا أن موسم الأمطار الأساسى هنا يمتد لستة أشهر كاملة ولا ينقطع تماما فى بقية العام. نصف سنة من الانهمار الوحشى للمطر. نصف عام من الاهتزاز الكونى لأوتار الماء ولاصوت يصك سمعى بصراخ أو عويل أو حتى بكاء أطفال. فقط أصوات عصافير وخشخشة أوراق شجر وطقطقة أغصان صغيرة وإسراع نمور وقفزات قردة وخطو أفيال وئيد. هذه هى الأصوات فى صندوق رنين الكون هنا. إنها ليست أصواتا حية بل استدعاءات أوتار المطر. فالطيور والحيوانات تكف جميعا عن الشدو أو الصراخ وربما الحركة تحت المطر. ما

أسمعه تحت المطر هو شيء من ركام الأصوات المختفية فى مسام الغابة. أصوات لاترعبنى فاغتسل الآن ما أشاء وحتى أعماق عظامى من صنابير السماء وأدشاشها السخية. وخارج موسم الأمطار لا يحلو لى الاغتسال إلا تحت مساقط المياه التى تهوى من الينابيع العالية . كأننى اتيقن من براءة ما تجلبه اهتزازات أوتار الماء هنا وأتلذذ بالاغتسال دون أصوات الألم القديمة البعيدة. الآن أعثر على بداية ربما تفسر دافعى فى الكتابة إليك. قد يكون ذلك لتثبيت يقينى فى أننى برئت. قد تكون رغبة فى الإطلال على تذكارات قديمة فى قبو بعيد مغلق. وهى بالتأكيد حنين أو بعض الحنين. اشتاق لمصر وللمنصورة لكن الأصوات التى تستدعيها أوتار الماء هناك ترعبنى. أحن وأحجم واتعذب بلاشك بين حنينى وإحجامى. وتظل ذكريات ألمى أثقل من تداعيات حنينى. بينما الغابة العذراء تمنحنى عزاءها حتى الآن بسخاء. عندى كوخ فى تلافيف حنايا الغابة لا تصل إليه إلا أجنحة الفراشات والطيور وأهل زوجتى البدائيون المسالمون. طعامى فى الغدران الرائقة وعلى أغصان الشجر المثمر. ولا أحتاج لثياب تذكر فى هذا المناخ الدافئ الرطب طوال العام. انتابنى بعض الضجر من قبل لكننى عثرت على فرصة لسد منافذه. الفرصة نفسها التى جعلتنى التقى بك والتى ستحول دون

عودتك للقائى إن أردت. فى إحدى نوبات ضجرى خرجت من الغابة واجتزت واديا عبر مرتفعات الكردمون. حللت ببلدة صغيرة نائية فعرفت أن الحرب الأهلية قد انتهت. حل سلام مغبر على كمبوديا واستقر "سيهانوك" فى قصره القديم "ببنوم بنه" وصار للبلد رئيسان للوزارة. عادت الملاحة إلى روافد نهر الميكونج وبدأ السواح يتدفقون لرؤية معابد "وات بو". ونشطت وكالات الإغاثة وبعثات التبشير لمد المبتورة أطرافهم بالأيدى والسيقان الصناعية والعقائد والملل من كل لون. كنت أبحث عن كتاب اقرأه قتلا للضجر الذى تبتعثه داخلى ملوثات حياتى القديمة. ووصلت إلى صفقة مع صاحب حانوت خشبى صغير يستند إلى جذع نخلة جوز هند وعليه لافتة لوكالة سياحة اسمها "تونل ساب". بدا الأمر هزليا كله فى بادئ الأمر لكنه تمخض عن تحقق ملموس للصفقة. أعمل دليلا للسياح فى الغابة مقابل أن يحضر لى الرجل بعض الكتب والصحف بالإنجليزية أو العربية إن استطاع من العاصمة. لم يكن هناك مكان للنقود فى حياتى الجديدة وحتى الآن. وبدأ السياح يأتون على فترات متباعدة. وفى كل مرة يتم استدعائى بطريقة اخترتها حتى لا يتسلل أحدإلى عمق الغابة. وهى الطريقة نفسها التى استدعيت بها لمصاحبتك انت وزميلك المصور. الغابة المطيرة ليست تكوينا سهلا كأى غابة أخرى. إنها طبقات فوق

طبقات من النباتات الوارفة الكثيفة . يتسلق بعضها بعضاً ويغطى بعضها بعضا بدءاً من الأرض المكسوة بالجذوع والسراخس حتى سقف الغابة المحكم بتشابك الأغصان العالية والذى يصعب رؤية السماء عبره وتتسلل أشعة الشمس خلال فُرجه الدقيقة بمقدار. يصعد الرجل إلى ذروة معينة من ذرى الجبل وينادى باسمى ثلاث مرات ثم يمضى عائدا إلى حانوته. بعد ما يقارب الساعة والنصف أكون فى الحانوت لاصطحاب السياح كما حدث معك، إن صوت نداء الرجل لا يخترق كثافة الغابة أبداً. لا يصل إلىّ كصوت. فالصوت عند إطلاقه يضرب بموجاته جدار الغابة النباتى. تتذبذب الزهور البرية فيتحرك الهواء ويحرك زهوراً أخرى وأوراق سراخس غضة حتى أرى ذلك فى المكان الذى أكون فيه. فإذا ترجع اهتزاز الزهور وأوراق السراخس ثلاثا أعرف أنه يناديني.

... ...

وقبل الخروج من الغابة أطل عبر سواترها الخضراء لأتاكد أن أحدا لا يرصد معابرى. وفى جولتى مع الغرباء لا أقودهم إلى أبعد من حافة حافة الغابة. انت أيضا لم أجعلك ترى إلا حافة الحافة هذه رغم دهشتك الكبيرة بما رأيته ورغم مكانتك القديمة فى قلبى. أخشى أن أفقد سلام هذه الغابة التى تمنحنى مطراً بلا

بكاء ولا فزع. ثمة نأمات غريبة بدأت تظهر مؤخرا بعد عامين من وصول السياح إلى هنا. أشياء صغيرة لكنها تبتعث بعضا من رعبى القديم. صارت اهتزازات أوتار المطر تستدعى أصواتاً حادة تخيفنى.. صوت قطع لغصن. صوتاً لعله طلقة مكتومة أو لكمة مباغتة. صوت نميمة مغلولة. أو صوت تشائم حاقد. لكن سلام الغابة لا يزال محيطا صافيا لا تعكره هذه الذرات من غبار البشر (المتمدنين). لعلى لا أكون أغريتك بالمجئ. ليتك لا تفعل. أحس أن فضولك شديد. وان الدهشة تمتلك عليك سلطانا تصعب مقاومته. وربما فكرت فى العودة (لمعاينتى) ومراجعة (الأمر كله) دفعة واحدة. أرجوك لا تفعل. فعندما تكمل قراءة رسالتى هذه سأكون قد اختفيت فى قلب الغابة. وإذا عدت فلن يستدرجنى فضولك لأدلك على هذا القلب. لقد سمعتك تهمهم بالعربية ونحن فى ظلال الغابة بتمنيات أن تعيش فى هذه البكارة. أعرف أنك لن تستطيع ولن تمنحك الغابة حنانها إلا إذ منحتها قلبك كله. أن تمد فى تربتها الرطبة جذرك وتحيا متآلفاً مع أغصانها وطيورها وحيواناتها حتى حشراتها. لن تستطيع أن تنفصل عن أسرتك وحياتك هناك. ولن تستطيع أن تأتى بهم للعيش هنا. وليس لديك الألم الذى يُلجئك خالصا لحنان هذه الغابة. أحس أن رسالتى التى كتبتها إليك فى يوم الراحة بين أيام تجوالنا السبعة توشك على

الانتهاء. ويبدو أن كتابتها مجرد كتابتها كانت تتضمن المبرر والدافع للكتابة فأنا أشعر الآن بكثير من الارتياح. ولا أريد أن أكون سببا فى قلق روحك التى لا أشك فى حيرتها. عش مع أحبابك طالما أن أصوات الألم لا تحول بينك وبين أرتواء نفسك من الماء. وإن أغبطتنى وسئمت عالمك ولم تستطع المجئ خالصا. ولن تستطيع. فابق هناك . واغمض عينيك على ما تبقى من أطراف هذه الغابة فى نفسك.

ذلك الوميض

تعجب معاونوه من الأطباء المقيمين والإخصائيين الجدد عندما أخبرهم فى اجتماع القسم أنه سيتولى عنهم مهمة المناوبات الليلية لبعض الوقت، وطمأنهم إلى أنهم سيحصلون على مكافآت السهر كاملة كما لو كانوا يناوبون. كان واضحا أن الأمر مرتبط بحالتى الزوجين الكهلين اللذين أدخلهما مجانا فى العنبر الخاص، ثم إنه أمر بإخلاء غرفة التمريض فى العنبر الخاص لنقل محتويات غرفة الطبيب المناوب إليها، وزاد من تعجبهم أنه لم يشخِّص حالتى الكهلين، بل اكتفى بملء خانة العلاج فى ملفيهما بمضاد اكتئاب وتوتر خفيف مع مقويات عامة، وكأنه لم ير فى حالتيهما أكثر من وهن عصبى وتفاعل اكتئابى عابر، أو أنه يؤجل تشخيصهما برغم أن جسامة الأعراض لديهما تضعهما بارتياح فى خانة الفصام التخشبى، خاصة مع هذه الجُمدة وذلك التوهم عن ابنهما الذى فقداه والذى لم يتخليا عن الاعتقاد بأن عينيه كانتا تضيئان فى الظلمة.

وهو يعدُّ لنفسه كوب شاى العصر فى غرفة الطبيب المناوب، وبالأدوات ذاتها التى كان يستخدم مثلها منذ ثلاثين سنة: السخان البدائى والكوب الزجاجى البسيط الحميم، يتذكر شكوكه البكر فى

قطعية المعرفة التى كانت تزوده بها المراجع المعتمدة ويلقمها أياه أساتذته الذين بنوا أمجادهم على تقديس هذه المراجع، يسترجع تاريخ النسيان الطويل لهذه الشكوك التى طمرها بركضه العملى يوما بعد يوم حتى اختفت، اختفت لكنها لم تمت، وها هى تخرج متأخرة ضارية، لتجعله يبدأ من جديد.

مع الغروب دار فى مرور سريع على أسرة العنبر العام، ولم يكن هناك ما يستدعى التدخل، لكن الشكوك كانت تصاحبه: كم حالة بين هؤلاء الذين مر بهم تم حشرها حشرا فى قوالب التشخيص والعلاج المتبعة؟ كم صرخة استغاثة أو إنذار مما تجهله هذه القوالب جرى كبتها؟ وكان يتهيأ بهذه الشكوك لما سيواجه به نفسه فى تلك الغرفة من غرف العنبر الخاص.

وجدهما مستغرقين فى النوم على سرير واحد، يشكل جسداهما الضامران قوسين ناحلين يلوذ كل منهما بالآخر، لابد أن المرأة هى التى غالبت انهيار جسدها المتيبس وتعثرت صاعدة إليه لأن سريرها هو الخالى، ولابد أن الرجل غالب وهنه وتيبسه ليتزحزح مفسحا لها حيزا فى سريره. أى حنان بائس يراه فى صورتيهما نائمين أمامه، حنان يشعره بكثافة الخزى المهنى فيأمر الممرضة المصاحبة بالانصراف ويتهاوى جالسا على حافة السرير الخالى يتأملهما ناعسين، ويشرد..

عندما رآهما فى المرة الأولى كان ذلك بالعيادة الخارجية، فى زحام كرنفال المعلم الكبير الذى يقام له كلما تنازل وتعطف على تلامذته بمناظرة بضعة حالات فى العيادة.. حشد من المساعدين والنواب وأطباء التدريب والممرضات كانوا يشكلون حدوة حصان كبيرة من المعاطف والثياب البيضاء، وهو وراء مكتبه يتمركز داخل قوس الحدوة مواجها الفتحة التى يدفعون إليه من خلالها بالحالات، وقف الرجل والمرأة أمامه متصدعين، وكصياد بارع أخذ يعلم متدربيه كيفية اقتناص الأعراض والعلامات المرضية بإصابات مباشرة. سأل الزوجين عمن دفع الآخر للمجئ فقالت المرأة إنها هى التى ألحت عليه حتى قبل ، فعاجل المرأة بلماذا ألحت عليه فسكنت متلفته إلى عشرات العيون من حولها، ابتسم ابتسامة مطمئنة وهو يقول لها إن كل هؤلاء أطباء وعليها ألا تخجل منهم، وما أن تطامنت ملامحها لحظة حتى كرر السؤال فأحنت رأسها وهى تهمس بأنه صار يشك فيها بعد مجئ الطفل الذى انتظراه اثنتين وعشرين سنة. أغمض عينيه مفكرا بتركيز لبضع ثوان فيما ساد الصمت ثم فتحهما فجأة على وجه المرأة مطلقا السؤال: ومن الذى يتهمك معه بالخيانة؟ فأجابت المرأة بحزن: "القط". سرت همهمة خافتة فى حدوة الحصان الضخمة البيضاء فمسحها بنظرة زاجرة، ومع عودة الصمت انحنى خفيفا

على أوراق الرجل أمامه ملتقطا اسمه الذى خاطبه به سائلا إياه بصوت مترفق: ولماذا القط يا خليل، فأجابه الرجل مطرقا أسيفا: "لأن عيون الطفل تضئ فى الظلمة".

لم يزد إلا سؤالا واحدا يومها ليكمل الأسئلة الخمسة: "هل تفكر فى أن عينى الطفل تضيئان أم أنك رأيتهما تضيئان"؟ وأجاب الرجل: "أراهما تضيئان دائما فى الليل". خمسة أسئلة لم تستغرق أكثر من خمس دقائق شيد عليها تشخيصه ، وكان جمهور حدوة الحصان يتشرب انتشائه بهذه الحالة المثيرة التى شرع يفككها ويعيد تركيبها أمامهم: "الأزواج الذين يتأخرون فى الحصول على أطفال إلى هذا الحد، ومن عناء الانتظار اليائس الطويل، وكبت انفعالاتهم السلبية تجاه ما يعانونه من إجراءات طبية مهينة ومرهقة، وتكرار الفشل، وسياط الآخرين التى تلهبهم بالأسئلة بل حتى بالأدعية أن يرزقهما الله بطفل، كل هذا غالبا ما يدفعهم نحو دائرة العُصاب، بل يجعلهم حالات بينية تقف على حافة الذُهان، وعندما يجئ الطفل المستحيل، فعلا، تشكلً الانفعالات المفرطة والأعباء التى مضى زمنها نوعا من الضغوط النفسية والجسدية تمثل الحركة الصغيرة المطلوبة لدفع الحالة البينية عن الحافة ثم السقوط فى وادى الذهان السحيق، ولدينا هنا ضلالات اعتقاد واضحة وهلوسة بصرية ساطعة كعين الشمس مع أعراض

اكتئابية مصاحبة، لهذا نشخص الحالة ونحن مرتاحون فصاما وجدانيا اكتئابى النوع وسنشتغل على ذلك بجرعات متوسطة من المطمئنات الكبرى مع مضاد للاكتئاب بجرعات متوسطة أيضا والتنبؤ العلاجى جيد بنسبة شفاء عالية خلال ثلاثة أشهر".

هراء...

كان يرى نفسه يومها متألقا وكان جمهور حدوة الحصان يراه كذلك، لكنه الآن وهو يتأمل حطام الكهلين اللائذين ببعضهما أمامه، متداخلين على سرير المستشفيات الضيق كغريق يتشبث بغريق، وبعد أن جمع شيئا من تفاصيل ما فاته صار يرى أنه لم يقدم يومها سوى هراء، فاتته بديهيات كانت تكفى لجعله لا يشعر بكل هذا الخزى المهنى، إنه لم يعر اهتماما لدموع الرجل وزوجته التى كانت تسيل على وجهيهما طوال الوقت، لم يفترض للحظة أن تكون للمرأة معاناتها هى الأخرى، ولم يفكر أن يسالها عن عينى الطفل اللتين تضيئان، بل لم يخطر له أبدا أن يتقصى بنفسه أو بواسطة أحد نوابه هذه المسألة. لم يفكر إلا فى ملء خانات الملف الحرفى الموجود فى ذهنه، وهاهو هذا الملف يكشف عن تهافته أمام احتمال استثنائى لوجود طفل بشرى تضئ عيناه فى الظلمة ، بل يكشف عن تهافت مراجع وخبرات أعوام عمله

الثلاثين.

تململ الكهل النائم محركا ذراعه العظمية فأحاط بالكتفين العظميين لزوجته الغارقة فى النوم إلى جواره، وامتد ذراعها متجاوباً ليلتف حول ضلوع الكهل، تآزر لا شعورى لا يتذكر أنه قرأ عنه فى أىً من مراجعه الضخمة أو فكّر فيه من قبل، حطام يتقوى حتى فى غيابة النوم بحطام يألفه، صورة تفطر لها قلبه وكاثفت من شعوره بالذنب، فنهض متهالكا لينصرف، وأدهشته بنفسجية أول المساء تطل من زجاج نافذة الحجرة.

لم يخرجا من حجرتيهما فى الأيام الثمانية الأولى، لكنهما أدهشاه بأنهما كانا ينامان فى النهار ويستيقظان طوال الليل حتى طلوع الفجر، وأمر هو طاقم التمريض بألا يطبق عليهما النظام المعتاد فىالقسم، بل يُتركا وشانهما فيما يتعلق بالنوم الصحو ويقدم لهما الطعام والدواء فى فترة استيقاظهما، فى أثناء ذلك كان يعودهما ويقضى فترات طويلة فى محادثتهما، لا بالطريقة التى اعتاد بها تقصى حالات المرضى طوال ثلاثين سنة، كمحقق وممثل اتهام ودفاع وقاض وسلطة تنفيذ معا، بل كحائر ودود يتمنى لو يعرف الحقيقة لعله يستطيع أن يقدم لهما عونا، وكان يحكى لهما عن نفسه بصدق كلما شعر بحاجة للبوح. حكى عن انقطاعه عن بيته وكيف أن هذا الانقطاع لم يحرك زوجته وأبناءه

للقلق عليه ولا تغيير نمط حياتهم اللاهى ليمروا ولو لخمس دقائق يرونه ويراهم، أبدا، لا أكثر من اتصالات تليفونية موجزة فيها من الطلبات أكثر مما فيها من الرغبة فى الاطمئنان عليه، واسياه بإخلاص وضعف، وحكيا له بالضعف والإخلاص ذاتهما عمّا ودّ لو يعرفه، ولم يعد فى اليومين الأخيرين فى حاجة لأن يستخرج منهما الإجابات إذ لم تعد هناك أسئلة، لم يتبق غير مونولوج طويل راح يشاركهما فى الانفعال به.

ولم لا، ظل يردد ذلك فى داخله وهو يراقبهما ليلة بعد ليلة يخرجان فى الظلمة ويهيمان فى الحديقة الملحقة بالقسم الذى يشغل الطابق الأرضى من المستشفى الكبير، فى البدء كان يراقبهما، ثم صار يتابعهما، وانتهى به الأمر أن يهيم معهما بفكره وهو يشاهدهما من الفرانده المفتوحة على الحديقة حيث لا يكون معهما أحد غيره تحت قبة الليل الفسيحة. ولم لا، كان يفكر فى الزوجين البسيطين اللذين ارتباطا بأكثر دوافع الحياة تلقائية، ومن ثم كان أعز ما ينتظرانه من زواجهما أن يرزقا بطفل، لكن الطفل يتأخر عاما، عامين، خمسة، عشرة أعوام ولا يجئ برغم التحاليل والفحوص والأدوية والعمليات وإنفاق كل ما يمتلكانه باستثناء مرتبيهما كموظفين صغيرين، ثم تسللت إلى البيت الساكن أول قطة هائمة فتحولت إلى طفل بديل للأبوين المحرومين من

الأطفال، وتجر القطة أخرى فأخرى وتنجب القطط فيضج البيت بحياة اثنتى عشر قطة بينها ثلاثة ذكور، ويحدث للمرأة حمل غير منتظر بعد عشرين عاما من اليأس، لكنها تجهض ويُعزى الإجهاض إلى ميكروب تنقله الحيوانات فتطرد القطط جميعا فى نوبة غضب وحسرة خارج البيت، يعود بيتا فارغا أشد وحشة ، وفى ثانى أعوام هذا الافتقاد وهذه الوحشة يحدث الحمل الثانى، ويجئ الطفل المستحيل لأم فى الخامسة والأربعين وأب فى الرابعة والخمسين فتوشك أن تميتهما الفرحة، لكنهما بعد أيام قليلة يبدآن فى ملاحظة أن عينىالطفل تومضان فى الظلمة بضوء أخضر فسفورى، تماما كعيون القطط، وكالقطط كان ينام النهار ويستيقظ فى الليل، بينما جافاهما النوم فى الليل وفى النهار، راحا ينهاران بين حب الطفل والخوف منه والخوف عليه، ويتماسكان ليعتنيا به ويخبئان سره عن الناس فينهاران فى داخليهما أكثر. وفى دوامة هذا الانهيار يهذى الرجل باتهام زوجته فى قط، فتكون القاصمة التى تلجئهما إليه، وهو بخمسة أسئلة لا غير وفى خمس دقائق لا تزيد أحبط أعمق مبررات لجوئهما بهراء، مجرد هراء.

لم لا، واصل يقينه الجديد تحت سماء الليل وهو يرى الزوجين يهيمان بقربه، أراحهما البوح كثيرا فاستعادا الكثير من عافيتيهما اللتين انهارتا بعد الموت الذى اختطف منهما الطفل فى

شهره الثالث، كانت أنفاسه ووجهه الوديع النائم فى النهار حصاة تسند تداعيهما المؤجل، وجاء موته المبكر ليجعلهما يتداعيان فى جُمدة كتمثالين من الشمع، ولولا أن اكتشف جيرانهما غيابهما الذى امتد خمسة أيام كاملة لقضيا من العطش والجوع وهما فى هذه الجمدة. كانا فى حاجة إلى من يصدق ألمهما الخارق لكى يواصلا ما تبقى لهما من حياة، وكان هو من صدق ذلك وإن متأخرا، لم يخرجهما من الجمدة بنوبات التشنج التى تُحدثها الصدمات الكهربائية ، ولم يستعمل معهما مضادات الذهان الساحقة، فقط صدق ألمهما، ولم لا، لم لا تكون السنوات العشر الطويلة مع القطط كأطفال بدائل قد صبغت نفس الأم المحرومة من الأطفال بطابعها، وعندما حملت انصاع الجسد لخبيئة النفس التى لم ترتو أشواقها إلا ببنوة القطط، جاء المولود بعيون فى شبكيتها مزيد من الخلايا العصوية الحساسة للضوء وخلايا التابيتوم التى تركز النور وتعكسه وهجا فسفوريا كما عيون القطط فى الليل. ويا لهذا الليل.

صارت مناوبات الليل لديه أشواقا لا حدود لها، تتجاوز بيته الذى جافاه، ومهنته التى لم يعد خاضعا لمسلَّماتها - أشواق تطوف بالمخلوقين الهائمين فى ظلمة الحديقة بحثا عن وهج فسفورى مفقود، تتطلع عاليا عاليا إلى بريق النجوم النائية التى

يعرف أن ارتعاشها على شبكية عينيه إنما هو ذكريات بعيدة، ذكريات أضواء ارتحلت عن نجومها.. عن مراياها الكونية البعيدة البعيدة منذ ألف ، أو ألف ألف عام ، وبات موقنا أن من يعرف كيف ينظر فى عمق عمق عينيه هو، لابد سيبصر ذلك الوميض.

الفهرس

رنين	٦
تلك الحياة الفاتنة	٧
هرم داكن توشيه الثلوج	١٥
حقيبة بلون الشفق والرمل	٢٥
طريق القناصة	٣٩
قارب صغير يتسع لاثنين	٤٧
شرفة العطور	٥٥
أعز ما تبقى من عمرى لك	٦٧
المختفى مرتين	٧٧
رنين أوتار الماء	٨٩
ذلك الوميض	١٠٥

رقم الايداع ١٤٢٣٧ / ٢٠٠٣

I.S.B.N. 977 - 01 - 8777 - 1

وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلا كاملا من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زادا معرفيا للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية .

سوزان مبارك

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرش